UNIVERSAL LIBRARY

رحلة

جرجي زيدان

الى اوربا

سنة ١٩١٢

عنيت بنشره
ادارة الهلال بمصر
سنة ١٩٢٣

تمهيد

قضينا صيف هذا العام في اوربا بين فرنسا وانكلترا وسويسرا وتنقلنا في اهم مدائنها فزرنا مرسيليا وليون وباريس ولندن وكمبريدج ومنشستر واوكسفورد وجنيف ولوزان وافيان . ودرسنا احوالها وتفقدنا متاحفها ومكاتبها وآثارها . وتوخينا النظر على الخصوص في ما يهمّ قراء العربية من احوال تلك المدنية التي اخذنا في تقليدها منذ قرن كامل ونحن نتخبط في اختيار ما يلائم احوالنا منها . وسننشر في ما يلي خلاصة ما بلغ اليه الامكان من ذلك الدرس

ونقتصر من ذلك على ما يهم القارىء الشرقي من حيث حاجته الى تحدي مدنية اولئك القوم في نهضته هذه . ونبين ما يحسن او يقبح من عوامل تلك المدنية بالنظر الى طبائعنا وعاداتنا واخلاقنا

وسنغفل سياق الرحلة فلا نذكر رحيلنا او نزولنا وما لاقيناه او كابدناه في اثناء ذلك على ما جرت به عادة اهل الرحلة اذ ليس غرضنا ان يكون ما نكتبه دليلا للراحلين في السفر والنزول ومعرفة الطرق والمسافات والاجور . وانما نريد ان نمثل للقارىء ما طبع في ذهننا أثناء هـذه الرحلة بعد اعمال الفكرة في احوال تلك الامم . ولذلك نقسم الكلام الى ثلاثة اقسام باعتبار الممالك التي زرناها على ترتيب تلك الزيارة فنبدأ بفرنسا فانكلترا فسويسرا

اولا ـ فرنسا

١ – نظام حكومتها

تقلب نظام الحكومة الفرنساوية على اوجه شتى واستقر في ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠ على الجمهورية . وتثبت ذلك في ١٦ يوليو سنة ١٨٧٥ بقانون دستوري تعدّل بعض التعديل بعد ذلك . وهو يقضي ان ترجع قوة التشريع الى مجلس الامة ومجلس الشيوخ وقوة التنفيذ الى رئيس الجمهورية والوزارة

وهم ينتخبون رئيس الجمهورية كل سبع سنوات باغلبية الاصوات ولانتخابه يجتمع المجلسان المذكوران في الجمعية العمومية . وعليه تنفيذ ما يقررانه او يشرعانه . وهو يشكل الوزارة من المجلسين ويجوز ان يكون بعض الوزراء من غير اعضائها . وهو يعين الموظفين الملكيين والعسكريين ويعقد المعاهدات مع الدول الاخرى . لكنه لا يقدر ان يعقد معاهدة تتعلق بمساحة ارض فرنسا او مستعمراتها الا بمصادقة القوة التشريعية . ولا يجوز له ان يعلن حرباً الا بموافقة المجلسين . وكل عمل من اعمال الوزارة يجب ان يمضيه رئيس الجمهورية مع احد الوزراء . ويستطيع هذا الرئيس بالاتفاق مع مجلس الشيوخ ان يحل مجلس النواب

والوزارات او النظارات ١٣ نظارة هي : الداخلية والمالية والاشغال العمومية والحربية والبحرية والحقانية والمستعمرات والمعارف العمومية والخارجية والتجارة والزراعة والعمال والاديان

وينتخب النواب لاربع سنوات بالتصويت العام وكل فرنساوي من غير الجند بلغ الحادية والعشرين من عمره له حق التصويت في الانتخاب بشرط أن يثبت اقامته ستة اشهر في البلد الذي يريد ان يصوت لنائبه . اما النائب فيجب ان يكون سنه ٢٥ سنة على الاقل . وعدد النواب الآن ٥٨٤ نائباً وعدد المنتخبين بين عشرة ملايين وسبعة ملايين . ومجلس الشيوخ مؤلف من ٣٠٠ عضو ينتخبون لتسع سنوات من اعيان الفرنساويين ولا يكون سن احدهم اقل من ٤٠ سنة . يتقاعد ثلثهم كل ثلاث سنين وينتخب غيرهم . وانتخاب الشيوخ منوط بلجنة مؤلفة من مندوبين عن مجالس البلدية في الولايات على نسبة عدد سكانها ومن النواب . فينتخبون ٢٢٥ شيخاً ينوبون عن الولايات يضاف اليهم ٧٥ شيخاً ينتخبون لطول الحياة باجماع المجلسين . ولا يجوز انتخاب احد من اعضاء الاسرة الملكية (المخلوعة) في احد المجلسين

الراتب واحد للنواب والشيوخ فيستولي النائب او الشيخ على ١٥٠٠٠ فرنك في السنة (نحو ٦٠٠ جنيه) واما رئيس المجلس فيأخذ فوق ذلك ٧٢٠٠٠ فرنك (نحو ٢٨٤٠ جنيهاً) للنفقات . ويسافر اعضاء المجلسين في السكك الحديدية بنفقات زهيدة . وراتب رئيس الجمهورية ٦٠٠ ٠٠٠ فرنك او نحو ٢٤ ٠٠٠ جنيه . ونحو هذا المبلغ للنفقات الرسمية

وعندهم مجلس للشورى انشأه نابوليون الاول ولا يزال باقياً

يرأسه ناظر الحقانية . وهو مؤلف من مستشارين قضائيين وعلماء في القضاء للنظر في ما تعرضه عليهم الحكومة واكثره يتعلق بالادارة ونحوها

٣ ـ عمرانها

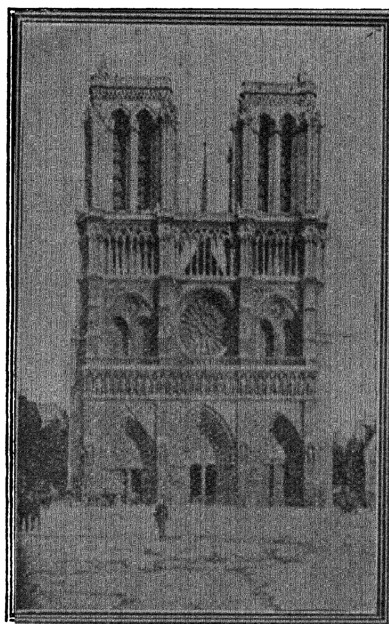
فرنسا قدوة الممالك المتمدنة في روح المدنية الحديثة واكثرهن احتكاكا بالشرق الادنى . وكنا الى عهد غير بعيد لا نعرف سواها قدوة لنا في احوالنا الاجتماعية والادبية والسياسية والقضائية ولا نزال اكثر معرفة بها مما بسواها

مساحة مملكة فرنسا ٢٠٧٠٥٤ ميلا مربعاً وعدد سكانها ٣٩ ٣٧٦ ٠٠٠ نفس (١) منهم نحو ٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نفس من اهل الفلاحة والباقون من سكان المدن يتعاطون الصنائع والمهن والوظائف والمصالح . وفيها ستون مدينة سكان كل منها فوق ٣٥٠٠٠ نفس اكبرها باريس عدد سكانها ٢٨٤٦٩٨٦ نفساً فمرسيليا ٥١٧٤٩٧ فليون ٤٧٢١١٤ نفساً . ثم تأتي بوردو وليل وتولوز وغيرها الى روان وسكانها ٣٥٥١٦ نفساً

وفرنسا من اكبر الممالك ثروة نعني اهل فرنسا فانهم يعدون في مقدمة الامم من حيث الثروة الخصوصية . واختلف الباحثون

---

(١) جميع الاحصاءات التي ترد في هذا الكتاب مأخوذ عن ذلك الوقت فهي صحيحة لسنة ١٩١٢



واجهة كنيسة نوتردام في باريس

في مجموع تلك الثروات فوجد المسيو دي فوفيل الباحث الاجتماعي ان فرنسا تقدر قيمتها على هذه الصورة :

جنيه	
٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠	ارض زراعية
٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠	ابنية
٢٠٠٠٠٠٠٠٠	نقود
٢٨٠٠٠٠٠٠٠٠	ضمانات وتأمينات
٤٠٠٠٠٠٠٠٠	ادوات زراعة ومواش ونحوها
٦٨٠٠٠٠٠٠٠	ممتلكات اخرى
٩٠٨٠٠٠٠٠٠٠	

وقدرها غيره باكثر من ذلك فبلغ مجموعها في تقدير جويو ٩٥٢٠ مليون جنيه . وبلغ دخل فرنسا السنوي في تقدير ايروا بوليو ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيه ثلاثة اخماسه من نتاج العمل الشخصي

وفي كل حال فان الفرنساويين مشهورون بالاقتصاد والاحتفاظ بالمال . والفقر المدقع عندهم اقل كثيراً مما في سائر الممالك الكبرى . وفرنسا كثيرة المعامل واسعة التجارة ولها في الصناعة الدقيقة القدح المعلى ولبضائعها شهرة طائرة في الجمال وسلامة الذوق وهي قدوة الامم المتمدينة في الازياء من الملابس وغيرها . وعاصمتها باريس مرجع امم الارض في كل ذلك مما هو مشهور لا يحتاج الى بيان . وسنعود اليه عند الكلام على الاحوال الاجتماعية

اما ماليـة الحـكومة الفرنساوية فبلغ دخلها في السنة الماضية ١٧٠٧٦٧٠٥٤ جنيهاً منها ٥١ مليون جنيه دفعت عن الدين و ٣٥ مليوناً للحربية و ١٦ مليوناً للبحرية

٣ – حالتها الاقتصادية

فرنسا ارض زراعيـة خصبة تزيد مساحة ما يزرع منها على ١٣٠٠٠٠٠٠٠ قصبة . واكثر حاصلاتها الحنطة والكرم والعلف والبطاطس . وللخمور غلة كبرى بلغت قيمتها سنة ١٩١٠ نحو ٣٨٠٠٠٠٠٠ جنيه . وفيها من الماشية والحيوانات الاهلية كما يأتي :

عدد	
٣١٣٣٦٥٠	خيول
١٩٤٠٠٠	بغال
٣٦٣٠٠٠	حمير
١٤٢٣٤٠٠٠	ماشية من البقر ونحوها
١٧٤٥٠٠٠٠	« من الغنم
٧٢٠٢٠٠٠	خنازير
١٤٢٤٠٠٠	ماعز

اما الصناعة فالحرير له سوق رائجة عندهم وقد بلغ عدد المشتغلين في تربية دود القز سنة ١٩٠٨ نحو ١٢٣٨٠٠ عامل . ومقدار البزر

الذي استولدوه ١٨٧٠٠٠ اوقية وبلغ محصولها ٨٤٠٩٢٩٩ كيلوغراماً من الفيلجات

وفي فرنسا كثير من المناجم المعدنية تناهز ٦٠٠ منجم فيها ٢٣٠٠٠٠ عامل وفيهم النساء والاولاد . وبلغت غلة هذه المناجم نحو ٢٦٦٥٦٠٠٠ جنيه اكثرها من الفحم والحديد

وهي كثيرة المعامل على اختلاف انواعها اهمها معامل نسج القطن والصوف والحرير ومصانع الادوات الحديدية وادوات البناء وهاك اهم المعامل وعدد عمالها :

عدد العمال	
١٦٧٢٠٠	معامل لنسج القطن
١٧١٠٠٠	« « الصوف
١٢٣٠٠٠	« « الحرير
١٦٦٠٠٠	« اصنع الخزف
٥٧٠٠٠٠	للمصنوعات الحديدية
٥٥٠٠٠٠	عملة ادوات البناء
١٥٦٠٠٠	معامل الدنتلا وتوابعها
٩٣٨٠٠٠	معامل الملبوسات على أنواعها
٧٠٤٠٠٠	للمصنوعات الخشبية
٣٣٤٠٠٠	للمصنوعات الجلدية

ومن أهم حاصلات فرنسا السكر فان لهُ ٢٥١ معملا وتبلغ غلته

في العام نحو مليون طن . وكذلك الكحول فان غلته تزيد على ٤٥ مليون جالون . غير غلة المصائد ونحوها

أما التجارة فلفرنسا شأن كبير وقد بلغت قيمة صادراتها لسنة ١٩١٠ نحو ٢٢٠ مليون جنيه ووارداتها ٢٧٠ مليوناً

٤ — حالتها العلمية

ان آداب اللغة الفرنساوية أشهر من أن تعرف . ولا يفي بوصفها الا المجلدات لكثرة من نبغ فيها من العلماء والادباء والشعراء . وبكثرة ما فيها من الصحف والمجلات على اختلاف مواضيعها وقد أشرنا الى ذلك مراراً في الهلال . وانما نريد هنا حالها من حيث التعليم والمدارس

ان للحكومة الفرنساوية عناية كبرى في التعليم تنفق في سبيل ذلك الاموال الطائلة على يد نظارة المعارف . والمدارس عندها طبقات : مكاتب (كتاتيب) ومدارس ابتدائية وثانوية وعالية . فنكتفي بفذلكة في التعليم العالي الذي يلقى في الجامعات الكبرى وفي الكليات الخاصة ونحوها . وهو حرٌّ مطلق بناءً على قرارات رسمية صدر آخرها سنة ١٨٩٧ والجامعة عندهم تحتها كليات أو مدارس تختلف اسماؤها باختلاف مواضيعها هاك اشهرها

١ مدارس الحقوق : هي ١٣ مدرسة في باريس واكس وبوردو وكاين وديجون وغرينوبل وليل وليون ومونبليه ونانسي

وبواتيه ورين وطولوز

٢ مدارس الطب : هي سبع مدارس في باريس ومونبليه وبوردو وليل وليون وطولوز ونانسي

٣ كليات العلوم : هي ١٥ كلية في باريس وبزانسون وبوردو وكاين وكليرمون وديجون وغرينوبل وليـل وليون ومارسيليا ومونبليه ونانسي وبواتيه ورين وطولوز

٤ كليات الآداب : هي ١٥ أيضاً في المدن التي تقدم ذكرها غير المدارس التجهيزية او التي يراد بهـا التبحر في بعض العلوم الخاصة . أما عدد المتخرجين في هذه المدارس فهاك اجمالهم حسب المواضيع لسنة ١٩١٠

عدد التلامذة	
١٦٩١٥	في الحقوق
٨٠٢٩	« الطب
٦٢٨٧	« العلوم
٦٣٦٣	« الآداب
٣٤٥٠	« الصيدلة وغيرها
٤١٠٤٤	

وهـذا العدد من طلاب العلوم العالية في الكليات الاميرية منه ٣٥٨٠٠ طالب من الفرنساويين و٥٢٤٤ من الاجانب . بينهم جميعاً ٣٨٣٠ من النساء ثلثاهن من الفرنساويين

وهناك مدارس عالية غيراميرية : منها في باريس الكلية الكاثوليكية لتعليم الحقوق والآداب العالية . ومدرسة التعليم الحر العالي . والكلية الحرة لتعليم العلوم السياسية . وفي انجرس مدارس للاهوت والحقوق والعلوم والآداب والزراعة . ومثل ذلك في ليون وليل ومرسيليا وطولوز . والمدارس الاميرية تمنح تلامذتها رتباً علمية هي (١) البكاوريا العلمية (٢) شهادة الحقوق (اللسانس) (٣) الدكتورية . وتمنح رتبة استاذ للتعليم الثانوي والعالي

وفي فرنسا غير ما تقدم من المدارس العالية مدارس كبرى تابعة لنظارة المعارف أشهرها :

١ كلية فرنسا Collège de France اسسها فرنسيس الاول سنة ١٥٣٥ وهي أرقى مدارس فرنسا على الاطلاق يعلم فيها ٥٠ فرعاً من أعلى طبقات العلم في الآداب واللغات وعلم الآثار والرياضيات والطبيعيات والعقليات والاجتماعيات والسياسة والاقتصاد وغيرها

٢ معرض التاريخ الطبيعي : للتفقه في هذا العلم

٣ المدرسة العلمية للعلوم العالية في التاريخ والفيلولوجيا والرياضيات والعلوم الكيماوية البسيكولوجية . والعلوم الطبيعية والدينية الراقية . ومقر هذه المدرسة في السوربون بباريس وعلومها ١٨ فرعاً

٤ مدرسة المعلمين العليا : يتخرج فيها المعلمون للتعليم في المدارس الثانوية . واتبعت خطة السوربون بدون أن يكون لها أساتذة معينون

٥ مدرسة السجلات : لتعليم الخطوط القديمة والآثار ثمانية فروع

٦ مدرسة اللغات الشرقية الحية : بها ١٦ فرعاً من فروع اللغات الحية الشرقية

٧ مدرسة اللوفر : تعلم فن الآثار

٨ مدرسة الفنون الجميلة

٩ مدرسة الرصد بباريس

غير المدارس الفرنساوية خارج فرنسا كمدرسة الحقوق في القاهرة ومدرسة الطب في بيروت . فان مثلها في أثينا ورومية والهند الصينية وفي مراكش . ولفرنسا خارج باريس ثمانية مراصد

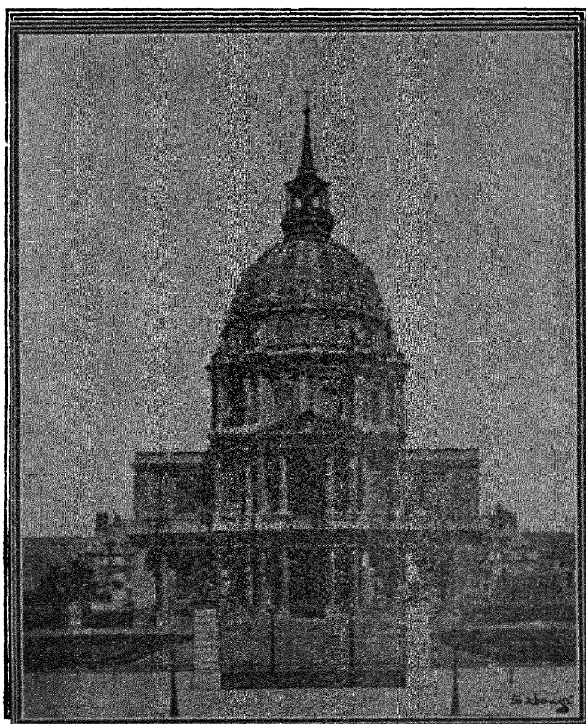
وغير التعليم الصناعي او الفني فانه واسع لكنهُ خارج عن دائرة نظارة المعارف أشهر مدارسه : مدرسة الصنائع والفنون في باريس (كونسيرفاتوار) تلقي عشرين علماً ليلياً في العلم والاقتصاد السياسي . ومدارس اخرى للتجارة والصناعة تابعة لنظارة الزراعة وغيرها تابع لنظارة الحربية أو المستعمرات أو غيرها مما يطول شرحه . وكلها في باريس ومثلها أو أقل منها في خارجها مثل اكس وانجرس وشالون وكليني وليل وغيرها . وغير مدارس الموسيقى

والخطابة ومدارس لتعليم الخدمة على الموائد وتربية الاطفال وغير ذلك

التعليم بمصر

والاطلاع على أسماء هذه المدارس يدل وحده على الفرق العظيم بين التعليم عندنا وفي تلك المملكة الراقية فقد ذكرنا عشرات من المدارس لا وجود لها عندنا ولم نذكر غير المدارس العالية . وقد أغفلنا المدارس الابتدائية والثانوية التي عندنا مثلها . على ان مدارسنا هذه احط كثيراً من أمثالها عند الفرنساويين والابتدائية أقل كثيراً من المدارس الابتدائية عندهم والمدارس الثانوية كذلك . وحامل البكالورية المصرية أقل معرفة من حامل البكلوريا الفرنساوية . فالتعليم عندنا ضعيف جداً من كل وجه وسنفرد فصلا خاصاً في هذا الموضوع . وانما يكفي في هذا المقام أن نبين تقاعد حكومتنا او اغنيائنا عن التعليم . ولا يحتج علينا بصغر مصر بالنسبة الى فرنسا فان سكان مصر يناهزون ثلث سكان فرنسا ومع ذلك فالحكومة لا تنفق على التعليم عشر ما تنفقه فرنسا. ان ميزانية المعارف الفرنساوية ١١٥٥٧٠٠٠ جنيه فكم هي ميزانية حكومة مصر للمعارف ؟ انها نحو نصف مليون

وقد يحتجون بتقصير المالية المصرية عن المالية الفرنساوية لان المالية الفرنساوية ١٧٠ مليون جنيه والمصرية أقل من عشر هذا المبلغ فلا عجب اذا دفعت للمعارف عشر ما تدفعه فرنسا



قبة الانفاليد بباريس وفي داخلها ضريح نابوليون الاول

ولكن فرنسا تدفع من ماليتها أموالا لا تدفع مصر شيئاً منها فالفرنساويون ينفقون على الحربية نحو ربع ميزانيتهم . وأما مصر فربع ميزانيتها يكفي لنفقات كل نظاراتها وفرنسا تدفع نحو ثلث دخلها لوفاء الدين وأما مصر فتدفع خمس دخلها فقط لهذا الغرض ومع ذلك فهي تنفق على المعارف ١/٢ مما تنفقه فرنسا

وفي فرنسا جمعيات علمية (أكاذيميات) عديدة لكل فرع من فروع العلم أهمها الاكاذيمية العامية او اكاذيمية العلوم . واكاذيميه العلوم والنقوش . واكاذيمية الفنون الجميلة . واكاذيمية العلوم الأدبية والسياسية . واكاذيمية الطب وغيرها . وكل اكاذيمية مؤلفة من ٤٠ عضواً او اكثر ولكل منهم اختصاص بفرع من فروع العلم التي تبحث فيها . غير ما هنالك من المتاحف العلمية والصناعية والمدارس على اختلاف أحوالها

وغير الجمعيات المؤلفة لتنشيط العلم والادب او لحفظ حقوق المؤلفين والمترجمين ومراقبة سير العلوم من حيث الصحافة . وغيرها وغير المعارض والمتاحف فانها من ظواهر الرقي العلمي وسنأتي عليها

المراسح والتمثيل

ليس المراد أن نصف المراسح التمثيلية فان لدينا منها أمثلة حسنة في مصر والاسكندرية وان كانت أقل مما في باريس فانها

تشبهها حتى كثيراً ما تعرض فيها روايات فرنساوية يمثلها أجواق من باريس . لكننا رأينا على مراسح التمثيل في باريس وغيرها من المدائن الكبرى في فرنسا وسويسرا ضرباً من التمثيل الانتقادي يسمونهُ في اصلاحهم Revue ويريدون به انتقاد العادات والاخلاق والآداب على المراسح في شكل بين الجد والهزل يلذ للمشاهدين لانه يتعلق على الخصوص بالامور الجارية التي يتحدث بها الناس . وكثيراً ما ينتقدون الكتّاب او رجال السياسة على كتاب ألفوه او رأي رأوه . وقد شهدنا تمثيلاً من هذا النوع في باريس انتقدوا فيه حرية المرأة الباريسية على أسلوب مؤثر فمثلوا عروساً عقد عليها لرجل وخرجت معه في الشارع فاصبحت كلما رأت رجلا تعرفه او رأت ان تحبه ضمته وقبلته وزوجها يرى ذلك . فاذا اعترضها احتجت عليه بحرية المرأة بقولها « ان هذا العصر عصر حرية » . وانتقدوا عادة البراز انتقاداً يحقرها في عيون محبيها وانتقدوا مقالات كتبت في الاحوال الجارية بباريس . وشهدنا في تمثيل آخر في جنيف انتقاد المعاهدات الدولية والمجاملات السياسية ومثلوا في جملتها حرب الدولة العثمانية والايطاليان وغير ذلك . فهذا الاسلوب من التمثيل لا مثيل له عندنا لكنه مفيد ولذيذ

٥ — مظاهر حضارتها

أرقى مدائن فرنسا بلا خلاف باريس ومع ذلك فالذاهب اليها

من مصر لا يجد فيها ما يدهشه من حيث ظواهر المدنية الحديثة كالشوارع الواسعة والابنية الفخيمة والانوار الكهربائية وازدحام الاقدام والبذخ في الالبسة والتفنن في الأزياء لان في مصر أمثلة من ذلك لكنها في باريس أنخم وأجمل . ولا غرو فان حضارة مصر الحديثة صورة مصغرة من حضارة باريس . والمرحوم اسماعيل باشا صاحب الفضل الاكبر في تنظيم شوارع القاهرة وانشاء الابنية الفخيمة فيها انما كان يفعل ذلك تقليداً لباريس وكان مفتوناً بالفرنساويين ومدنيتهم . وظل ذلك مستمراً بعده الى عهد قريب

فلا ينبغي لنا ان نطيل الكلام في وصف شوارع باريس الكبرى وسعتها وما يحف بها من المخازن وما يعرض في تلك المخازن من السلع الثمينة او ما يتلألأ في الليل من الانوار الكهربائية على اختلاف ألوانها . ولا تعداد ضروب المركبات في العربات فالاوتوموبيل فالترامواي فلاوتوبيس فلامنيبيس فالمتروبوليتان وغيره ـ فان هذه لها امثلة بين ظهرانينا لكنها عندهم اكثر عدداً والركاب اكثر ازدحاماً . وانما تمتاز عما في مصر وغيرها من مدائن الشرق ان السائق لا مطمع له في الراكب ولا سبيل الى طلب الزيادة عن حقه . لان المركبات الكبرى العمومية كالترامواي وغيره لها رسوم معينة كما في مصر . والمركبات الصغرى كالعربات والاوتوموبيل أصبحت كلها مقيدة بالعداد (تكسيمتر) وهذه الآلة تعين الأجرة اللازمة وتغني الناس عن النزاع

المركبات العامة

وقد استلفت نظرنا على الخصوص ان باريس مع تزاحم الاقدام فيها لا يتنازع الركاب في المسابقة الى الترامواي او الاومنوبيس ولا يسمح لاحد بالوقوف بين الركاب اذا لم يكن له مجلس فارغ. ولا يجسر أحد على الركوب في غير دوره. لا يختلفون في ذلك ولا سبيل الى الاختلاف لان عند كل موقف من مواقف هذه المركبات لوحاً معلقاً بعمود منصوب على الرصيف وعليه دفتر صغير الحجم أوراقه منمرة نمراً متسلسلة فالذي يسبق الى الموقف يقتطع النمرة الاولى ومن يأتي بعده يتناول النمرة التالية وهكذا. وقد يجتمع في الموقف عشرات من الناس وربما جاء القطار وليس فيه مكان الا لخمسة او ستة فلا يؤذن بالدخول الا لمن كانت عندهم النمر الاولى بقطع النظر عن أحوالهم من الغنى او الفقر والوجاهة

ومثل هذه العادة في لندن عند تكاثر الركاب ساعة الظهر لركوب الترامواي. فقد جعلوا في المحطات التي يكثر التزاحم عندها موقفاً مستطيلا لا يدخله الناس الا أزواجاً. اوله عند محطة القطر وآخره في الشارع لا حدّ له. فالواصل الاول يقف قرب المحطة تماماً والذي يأتي بعده يقف وراءه وهكذا أزواجاً. وقد يتألف من الواقفين سلسلة طولها عشرات من الامتار وكل منهم ينتظر دوره بلا نزاع ولا خصام. ويفعلون نحو ذلك في كل ما تتزاحم فيه الاقدام كالدخول الى المراسح او قطع تذاكرها.

فالسابق يقف عنـد شباك التذاكر والذي يأتي بعده يقف وراءه وهكذا وقد تتألف من الواقفين سلسلة طويلة رأينا واحدة منها عنـد مرسح بمنشستر . والمرسح في بناء كبير قائم بنفسه رأينا المنتظرين وقوفاً في سلسلة طويلة وقد يحيطون بالبناء من أربع جهاته اولهم عن يمين شباك التذاكر وآخرهم عن يساره

ومما يحسن استطراده ويهمنا أمره في هذا المقام ان قومساري الترامواي او غيره من المركبات العمومية لا يحتاجون الى مفتشين يتفقدون سيرهم خوفاً من السرقة كما هو حال الترامواي عندنا . وقد يكون للترامواي الفرنساوي او الانكليزي مفتشون ولكنهم لا يتفقدون المركبات الا نادراً وقد ركبنا في تلك المركبات عشرات من المرات لم نشاهد فيها مفتشاً ولا لحظنا من القومساري مطمعاً في التذاكر كاستخدام التذكرة مرتين لراكبين او قبض الجعل بدون ان يعطي التذكرة ولا رقيب عليهم من الشركة . ولعل السبب في ذلك ان الشركة تدفع لهم الرواتب الكافية لمعاشهم فلا يرون حاجة الى السرقة . ولو أرادوا السرقة لا يجدون من الركاب من توافقهم عليهـا كما يفعل كثيرون بيننا حتى ان بعض ركاب الترامواي بمصر يحرض القومساري على سرقة الشركة بقوله : « بلاش تذكرة » فيعطيه القرش ولا يأخذ التذكرة . وذلك ناتج عن ضعف في الاخلاق لا نراه عند اولئك

الاعلان

والتزاحم في العواصم الكبرى يسهل رواج السلع على طلاب الرزق . وقد يستغرب قومنا بمصر او الشام كيف ينفق في أسواق باريس او لندن أشياء لا فائدة لها او لا تستحق الرواج . وانما السبب في ذلك كثرة الناس لان من يعرض سلعة في الشارع لا يمضي عليه ساعة حتى يمر به مئات من الناس فلا يخلو أن يكون فيهم من يقع اختياره على تلك السلعة فيشتريها ولو على سبيل التجربة وانما يطلب من صاحب السلع ان يستلفت الاذهان الى بضاعته وهذا هو السبب في اهتمام الافرنج بالاعلان حتى ان أحدهم اذا همّ بانشاء تجارة او صناعة اعدّ رأس مال الاعلان قبل رأس مال البضاعة . وقد تفننوا في ذلك تفنناً عجيباً فهم يعلنون في الجرائد وعلى أغلفة الكتب وعلى جدران المنازل وأسطحتها وعلى الموائد وأغلفة المساوك وفي مركبات الترامواي والاومنيبيس والقطر الحديدية وفي المحطات ـ حتى الحقول فانك وانت راكب في القطر من مدينة الى اخرى يقع بصرك على عشرات او مئات من الواح قائمة على عمد مغروسه في الحقول ووجهها نحو الركاب فتقرأ عليها اسماء المحلات التجارية او المعامل او المصنوعات ولا سيما المشروبات والحلويات وأمثالها فان أصحابها من اكثر الناس انفاقاً على الاعلان . وانما يفوز منها من يستلفت الاذهان الى صناعته فضلا عن اتقانها . ويقال ان اكثر المتاجر انفاقاً في فرنسا

أصحاب معمل « شكولات مينيه » وحيثما توجهت في شوارع المدن او خطوط السكك الحديدية حتى المتاحف والمعارض ونحوها فانك تجد عليها اسم هذه الشكولاته وأصحابها ينفقون مليوني فرنك سنوياً على الاعلان وأرادوا مرة ان يقتصدوا فقلت مبيعاتهم فعادوا الى الانفاق

ومن أغرب طرق الاعلان عندهم انهم يكتبون اسم البضاعة على الحقول نفسها او على الجبال باغراس من الاعشاب بلون خاص يغرسونها على الرسم المطلوب كتابته فتنبت على ذلك الشكل . وقد تكون بعيدة عن الطرق والمنازل عدة كيلومترات فيراها الناس ويقرأونها واضحة . ومن أساليب الاعلان ان يذكر اسم السلعة او المشروب او غيره على المراسح او غيره في أثناء التمثيل على سبيل الاستشهاد او الانتقاد او غير ذلك ويدفع صاحب الاعلان على ذلك ثمناً

ومن أساليب الاعلان ان يعرض التاجر بضاعته ويكتب على كل صنف ثمنه . فهذا يسهل على الشاري الحكم في الابتياع او عدمه . لكن أصحاب البضائع التي فيها درجات متفاوتة بأثمان متفاوتة يعلنون انهم يبيعون الاداة الفلانية بالثمن الفلاني ويذكرون أرخص سعر عندهم فيتوهم الشاري انه ثمن الصنف الجيد فيدخل للسؤال فيطلعونه علي الاسعار ولا بد من أن يشتري

الازياء

ولا خلاف في ان باريس أسبق مدائن العالم الى جمال الصناعة ولطافة المصنوعات وهي التي ترسم للعالم الازياء التي يجب اتباعها وقد يكون لسواهم أزياء لكنها السابقة المتغلبة . ولاهلها مقدرة كبرى على توليد الازياء في الملابس وغيرها وهناك طائفة من أهل الذوق الصناعي انما يشتغلون بوضع الرسوم للازياء الجديدة يستعينون على ذلك بما في المتاحف الصناعيـة من الرسوم او المنسوجات القديمة فيركبون منها زياً جديداً يبالغون في تنقيحه وتدقيقه حتى يبلغ حده . ثم يعرض على أصحاب المعامل للنسج على منواله او أصحاب المتاجر ليروجوه

وللفرنساويين مهارة خاصة في الزخرفة واتقان المظاهر بغير التفات الى متانة ما يصنعونه وطول بقائه بخلاف الانكليز فانهم انما يهتمون بمتانة ما يصنعونه ولا يهمهم ظاهره وهذا تابع لما اتصف به هـذان الشعبان من الاخلاق كما سنذكره في بابه . فالبضاعة الباريسية انما يرغب النـاس في ظواهرها اكثر مما في متانتها . واعتبر ذلك في أكثر معاملاتهم فان ما تبتاعه بعشرة فرنكات من أسواق باريس ليس فيه من المادة الاصلية الا ما يساوي فرنكين أو أقل والباقي ثمن ما ينفق في سبيل ترويجه من المظاهرات كاتقان المخازن والاكثار من الخدم والتنوير الكهربائي والاعلان وغير ذلك

البوربوار (البخشيش)

ومن غرائب هـذه الحضارة في فرنسا « البخشيش » نعني ما يعطي للخدم مكافأة على خدمة خاصة وهو عندنا لا يعطي الا اذا كانت الخدمة خارجة عن واجبات الخادم التي ينقد عليها الاجرة . وأما عندهم فالبخشيش فرض واجب لا مناص منه ويسمونه في اصطلاحهم بوربوار Pourboire أي لاجل الشرب كانه يطلب أن تعطيه فلساً يبتاع به قدحاً من البيرا او الخمر . والبوربوار يعطى على الخصوص لخدم القهوات والاندية والمطاعم والفنادق وساقة المركبات وهو يقدر بنحو عشر المبلغ المدفوع ثمناً حقيقياً . فاذا دخلت مطعماً مثلا ودفعت عشرة فرنكات ثمن الغداء فالبوربوار لخادم المائدة فرنك . واذا زادت المدفوعات قلت نسبة البخشيش عن عشرة في المئة مما لا ضابط له . وفي ذلك مشقة على النازلين في الفنادق لانهـم لا يعرفون كيف يدفعون ولا لمن يدفعون فالخدمة كثيرون . والغالب أن يقسم البخشيش بين الفراش والبواب وخادم المائدة وصاحب الرافعة (اسانسور) وغيرهم . وقد يكونون اكثر كثيراً ويختلف ذلك باختـلاف الطبقات . فالداخل على مطعم فخيم يستقبله خادم يتناول منه القبعة والشمسية وآخر يقدم له كرسـياً على المائدة وهذا يخدمه في تبديل ألوان الطعام فاذا نهض تلقاه الخادم الآخر بالقبعة والشمسية وتقدم آخر ففتح له الباب عند الخروج وآخر يفتح له باب المركبة عند الركوب

فهؤلاء كلهم ينبغي أن يدفع اليهم البوربوار ــ وقد يزيدون على ذلك

وأصل هذه العادة الغريبة عندهم على ما نظن تزاحم الغرباء على أماكن اللهو في زمن لم يكن الخدم فيه يستطيعون القيام بما يلزم من الخدمة . فاصبح من يريد تعجيل حاجته مضطراً أن يسترضي الخادم بدفعة خصوصية له . وتكرر ذلك حتى صار قاعدة. وأصبح خدمة أماكن الملاهي يعدون البوربوار من جملة استحقاقاتهم وبعضهم لا يتقاضى من صاحب القهوة او المطعم اجرة . وفيهم من يدفع شيئاً من جيبه لصاحب القهوة ليأذن باستخدامه

ومما يستلفت نظر المصري في باريس انك لا تجد في شوارعها متسولا يعترض طريقك ولا متشرداً مستلقياً على الشارع ولا غلاماً عارياً أو شبه عار يتسلق الترامواي او يعرض عليك خدمة من حمل حقيبة او نحوها ــ لاشتغالهم عن ذلك بالمدارس

ولا حاجة بنا الى ذكر سهولة المواصلات والمخابرات عندهم كالتلغراف والتلفون والبريد فانها مشهورة وعندنا أمثلة منها لكنها هناك أكثر شيوعاً . فالتلفون يكاد لا يخلو منه منزل او متجر . وعندهم من طرق البريد مما لا مثيل له عندنا تذاكر ترسل مستعجلة في المدينة نفسها تتقاضى عليها مصلحة البريد ثلاثة أضعاف الاجرة المعتادة لكنها توصلها سريعاً كالتلغراف وهي ما يسمونها « بنوماتيك » Pnumatique وهي تذكرة تكتب فيها ما شئت وتعنونها وتضعها في عين من صناديق البريد خاصة بهذه التذاكر

وعمال البريد يتفقدون هذه العيون كل مدة قصيرة فاذا وجدوا فيه تذكرة أسرعوا في ايصالها حالا وهي ترسل عادة بضغط الهواء في أنابيب ممتدة لذلك تحت الارض

٦ – نظام الاجتماع فيها

نظام الاجتماع من حيث أساسه واحد في كل بلد وانما يختلف في تفاصيله باختلاف الاعصر والاقاليم . فالهيئة الاجتماعية في أبسط أحوالها مؤلفة من العائلة والحكومة والكنيسة . فاذا ارتقت نشأت فيها المدارس الجمعيات الأدبية والشركات الاقتصادية . وتختلف هذه الجماعات في كل بلد باختلاف طبائع أهله ونوع مدنيتهم وسائر أحوالهم . فنظام الحكومة يختلف بين الاستبدادي والدستوري والجمهوري . ونظام العائلة في الشرق غير ما هو في الغرب وفي هذا العصر غير ما كان عليه قبله . كانت العائلة عندنا الى أوائل القرن الماضي على شكل الحكم الملكي المطلق – الأب رئيس العائلة يستبد في أهله استبداد السلطان المطلق في رعيته يزوج من شاء بمن شاء ويعهد الى من يريد بما يريد من عمل او سفر او اقامة – لا يرون في ذلك غرابة . ثم تعدل، هذا النظام بعد دخولنا في المدنية الحديثة فاخذت العائلة تقترب من النظام الدستوري لكنها ما زالت أقرب الى الحكم المطلق ويختلف ذلك باختلاف الامم والاديان

وبناء على ما للاقاليم او البيئه من التأثير في ابدان الناس

وعقولهم وطبائعهم فاختلاف الاقاليم اوجب اختلاف الامم في كل فلننظر في طبائع الامة الفرنساوية على الاجمال

طبائع الفرنساويين

الفرنساوي عامل نشيط يدأب على العمل بحماسة وهمة . ولا سيما أهل الزراعة منهم فانهم قويو الأبدان يعملون في حقولهم بنشاط. ولا تجد في فرنسا بقعة تقبل الزراعة غير مزروعة . وكذلك العمال والصناع وسائر طبقات الناس فانهم نشيطون في ذهابهم وايابهم وفي كلامهم وأشغالهم وفي أسفارهم – فان أحدهم ينزل من القطار ويحمل حقيبته (الشنطة) بيده فاذا كان منزله قريباً سار الى بيته ماشياً لا يرون في ذلك بأساً . على انهم اذا طلبوا غلاماً او رجلا يحمل لهم الحقيبة في اثناء الطريق لا يجدون . وهي صفة يشترك فيها اهل اوربا كافة . ويتأثر بها الشرقي حالما يطأ تلك القارة . وتقوم في نفسه رغبة في الهمة والنشاط فاذا رجع الى بلده عاد الى طبعه . الا اذا توطن اوربا طفلا – ومرجع ذلك الى طبيعة الاقليم . والفرنساوي ذكي الفؤاد سريع الخاطر حاضر الذهن فصيحاً خفيف الروح فيه ميل الى الفنون الجميلة وذوق في الصناعة

الجمال

وللفرنساويين ذوق في الجمال لا تضارعهم فيه أمة . يظهر ذلك خصوصاً في الباريسيين فانهم قدوة الامم في الازياء على اختلاف

أشكالها . ولهم ذوق في توليد الجمال مما لا جمال فيه من نفسه بترتيب أجزائه على شكل لا قاعدة له الا الذوق . وهو على أرقى درجاتة في باريس . تجد المرأة القبيحة الخلقة تتزيا بزي يناسبها وتصفف شعرها تصفيفة تناسب ملامح وجهها فتظهر جميلة . ولهم في تصفيف الشعر واختيار شكل البرنيطة ولونها طرق تختلف باختلاف تقاطيع الوجه ولونه وشكل الانف والعينين والجبهة والفم وغير ذلك فيوفقون التصفيفة (التوالت) والبرنيطة على حال الوجه فيظهر جميلا

ويتبع ذلك ميلهم الى تزويق الحديث فانه من قبيل رغبتهم في الجمال الخارجي . فكما يوفقون بين تصفيفة الشعر وحجم البرنيطة وشكل الوجه حتى يظهر جميلا فهم ايضاً يحسنون الحديث حتى يلائم ذوق السامع فتنبسط نفسه له . لكنه لا يرى النتيجة دائماً كما كان يتوقعها . فالفرنساوي فيه ميل الى اتقان الظواهر اكثر مما الى اتقان البواطن وهو من قبيل حبه الجمال . ويخالفه الانكليزي في ذلك كما سنبينه في مكانه . ومن قبيل ميلهم الى الجمال واقتدارهم على توليده ما تجده في مخازنهم وشوارعهم من الزخارف التي يراد بها التحسين . أي ان تظهر السلعة المعروضة أحسن مما هي . ومن هذا القبيل استخدام المرايا في الواجهات لايهام الناس انها اكبر مما هي . واذا كان الحانوت صغيراً جعلوا جدرانه من المرايا فيظهر أضعاف ما هو

الاقتصاد والترتيب

والفرنساوي مقتصد من فطرته وترى الاقتصاد ظاهراً على الخصوص في القرى فان أصحاب المزارع الصغرى يعيشون عيشة بسيطة . والفلاح يشتغل وامرأته تشتغل وأولاده يشتغلون كل على قدر طاقته وحسب ميله . ولا بدّ لكل منهم أن يقتصد شيئاً من ربحه مهما كان قليلا فيحتفظ به لنفسه . وهم يستخدمون الفرش البسيط عكس أهل المدن وكذلك ملابسهم . فالفلاح الفرنساوي بسيط في لباسه وأخلاقه ومهما يكن من فقره فانك تجده نظيف الثوب نظيف الفراش يأكل على المائدة بالشوكة والسكينة بترتيب ونظافة . فلا تستنكف اذا دخلت بيته من أن تجلس على مقعده وتأكل من طعامه وتشرب من كأسه . وليس كذلك الفلاح المصري . ولا سبيل الى اصلاحه الا بتعليم المرأة وتثقيفها وهي المدبر لكل ذلك

معرفة الواجب

ومن الخلال الجيدة الشائعة في معظم اوربا ونحن في حاجة اليها « معرفة الواجب » وهي تشمل كل أعمال الانسان . نعني أن يشعر الانسان بما عليه فيؤديه من تلقاء نفسه بدون استحثاث او ارهاب او ترغيب — لو فعل ذلك كل انسان لاستغنى الناس عن الحكومات وأبطلت المحاكم . ولكن الناس يتفاوتون في هذا الباب واكثرهم شعوراً بالواجب أقربهم من المدنية والارتقاء . وهو يستلزم الامانة

وهي أساس المعاملات واكبر أسباب النجاح ـ ما أجمل ان يشعر الانسان بما عليه فيؤديه بلا وازع او مراقب . والفرنساويون من اكثر الامم شعوراً به وكذلك الانكليز . وربما ظهر الانكليز أكثر قياماً بالواجب لانهم يعملون كثيراً ويقولون قليلا . وأما الفرنساوي فميله الى زخرف الكلام يظهر أعماله قليلة . لكن الشعور بالواجب قويٌّ في كليهما

ذكرنا في غير هذا المكان أن قومساري الترامواي لا رقيب عليهم (مفتش) وهم لا يسلبون الشركة باستعمال التذكرة مرتين او قبض الثمن بدون اداء التذكرة لان القومساري الفرنساوي او الانكليزي نشأ وقد غرست والدته في ذهنه من طفوليته أن يعرف ما له فلا يطمع بسواه . ولو أراد السائق أن يطمع فان الشعب أرقى من أن يتساهل في هذا الامر لانه تربى تربية راقية وعرف ما لهُ وما ليس له ويعلم أن تساهله مع القومساري في أمر التذكرة انما هو مشاركة لهُ في السرقة . ولكن كثيرين عندنا يتساهلون في ذلك وبعضهم يحرض القومساري على السرقة . والسبب في ذلك ضعف أخلاق العامة عندنا . وان مثل الترامواي هـذا على بساطته يدل على اخلاق العامة

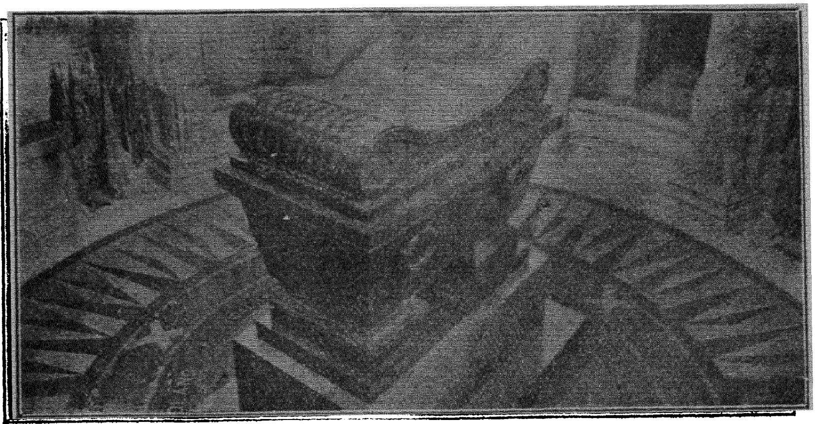
الثقة وقيمة الوقت وصدق المواعيد

ومن قبيل الامانة المبنية على معرفة الواجب وما يترتب عليها من الثقة المتبادلة ان بعض باعة الجرائد في فرنسا وانكلترا يضعون

أعداد الجريدة فوق طاولة على الرصيف خارج الحانوت وبجانبها علبة . فمن اراد أن يبتاع جريدة وضع ثمنها في العلبة وتناول الجريدة ولا رقيب عليه . وصاحبها لا يخاف أن يسرقه المارة فيأخذ أحدهم الجريدة ولا يدفع الثمن . وقس على ذلك الثقة المتبادلة في سائر الحرف

دخلنا مطعماً في لندن يوم وصولنا من باريس . وبعد الفراغ من الطعام دفعنا لصاحب المطعم ليرة فرنساوية فاعتذر بان النقود الفرنساوية لا تقبل عندهم . ولم يكن عندنا نقود غير فرنساوية . فوقعنا في حيرة وأردنا أن نترك الليرة لهُ ريثما نعود وقد بدلنا النقود . فاعاد الليرة ليدنا وقال « دعها معك ومتى بدلتها تدفع ما عليك » وكانت هذه اول مرة رآنا فيها الرجل . أليس ذلك من الاخلاق الراقية ؟ ان صاحبها لا يصور رجلا عليه حقٌّ لا يبادر الى دفعه من تلقاء نفسه . ولا يدل هـذا على خلو تلك البلاد من أصحاب الاخلاق الضعيفة ولـكنهم أقل مما عندنا كما اننا لا نعني ضعف الثقة عندنا في كل الطبقات . وانما نريد الاغلبية

ومن جميل ما نحسدهم عليه معرفة قيمة الوقت وهو يتوقف على معرفة الواجب أيضاً فانهم يقسمون أوقاتهم ويفرقونها على أعمالهم فلا يقصرون بنا عليهم ولا يضيعون أوقات أصدقائهم بالزيارة الحبية كما يفعل كثيرون عندنا فان بعضهم يزورك في ساعة شغلك ولا شغل لهُ ويعلم انك مشغول فلا يختصر زيارته ولا أنت تجرأ على



ضريح نابوليون في وسط الحجرة

الاعتذار منه لئلا تهم بالفظاظة ولكن هذه العادة آخذة بالزوال من بيننا في الطبقة الراقية

واعتبر ذلك في صدق المواعيد فانه تابع للشعور بالواجب . وهو ينقصنا لكنه آخذ في الشيوع بين المتعلمين

لا يعنيني

ومن الاخلاق الفرنساوية الشائعة في باريس اشتغال كل منهم بنفسه عن سواه فلا يتعرض أحد الى شؤون جاره بالاستطلاع او التجسس . وهو من طبائع أهل المدن الكبرى وطبيعي شيوعه في باريس وهي ثالثة مدائن العالم . وتجسس الاخبار والدخول في أحوال الآخرين يكثر في القرى الصغيرة لتفرغ أهلها للأحاديث ولانهم مطلعون على عورات جيرانهم ولا يخلون من التحاسد او التباغض . وكلما اتسعت المدينة قلت تلك العادة فيها ولذلك كان أهل باريس من أكثر الناس بعداً عنها . فان احدهم يمشي وهمه نفسه ولا يلتفت الى سواه . او يجلس في القهوة ولا يلتفت الى جليسه من هو . وقد يكون بجانبه رجل وامرأة يتغازلان او يتداعبان فلا يهمه ذلك . وهذا ما نعبر عنه بضعف الغيرة ولا يستطيع الشرقي احتماله . أما الفرنساوي فيتحمله ولسان حاله يقول « لا يعنيني »

ولكنه مع ذلك جنوح الى النجدة وفيه اريحية اذا استحثته على منقبة اندفع اليها بكليته ولو جرّه ذلك الى خسارة او حمله مشقة

المفاخرة بالرجال والحرية

ومن سجاياهم انهم يفاخرون برجالهم ويعظمون النابغين منهم . وحيثما مررت بشوارع باريس تجد تماثيل العظماء منصوبة في تقاطع الطرق او واجهات القصور او في الساحات العمومية يزيد عددها على مئة وستين تمثالا كبيراً للقواد والملوك والكتّاب والشعراء والفلاسفة والعلماء . وبينها تماثيل بعض مشاهير الامم الاخرى مثل دانتي شاعر الايطاليان ووشنطون محرر اميركا وشكسبير الشاعر الانكليزي وغريبالدي القائد الايطالي . غير التماثيل الرمزية عن الحرية او الاتحاد او نحوهما . وغير التماثيل المنصوبة في المتاحف والمراسح والمدارس والكنائس والمنازل وهي عديدة جداً . واكثرها شيوعاً تمثال بونابرت على اختلاف أقداره وأشكاله . والتماثيل تثير في النفوس الحماسة والميل الى الاقتداء باولئك العظماء . وهي وسيلة حسنة لاستنهاض الهمم واستحثاث القرائح لا مثيل لها عندنا – الا قليلاً

ويمتاز الفرنساويون عن سائر أهل أوربا بالنزوع الى الحرية على اختلاف اوجهها . وقد مرت أجيال كانوا فيها نصراء الحرية يأخذون بايدي طلابها وينصرونهم بالمال والرجال . وأشهر الشواهد على ذلك نصرتهم للاميركان في طلب الاستقلال من سلطة الانكليز . ومن قبيل تعشقهم الحرية مغالاتهم في مطاردة بعض الجماعات الدينية . لكنهم تطرفوا في ذلك حتى خرجوا به الى

عكس المراد بالمدنية . ففترت الحاسات الدينية ونزع الناس الى الشك في الدين وآل الامر في بعض الاحوال الى فساد الآداب . لأن العامة لا تستغني عن وازع ديني يصلح من آدابها . ومن اكبر أسباب الفساد القاء الشكوك الدينية في أذهان الناس

طعامهم وشرابهم

والفرنساويون يكثرون من اكل اللحوم في طعامهم وهو شأن أكثر سكان أوربا وخصوصاً في البلاد الباردة لاحتياجهم الى المواد اللحمية في مقاومة البرد . ولهذا السبب أيضاً يكثرون من شرب الخمور وتكاد لا تجد بينهم من لا يشرب الخمر على المائدة رجالا ونساء وأولاداً . وكثيراً ما يجر ذلك الى ادمان المسكر فكثر المدمنون عندهم ولا سيما في الطبقات السفلى كالعمال والصناع . أما شرب الخمر الاعتيادية فانه عام ولا يشترط أن يكون على المائدة . ولذلك ترى وجوه الفرنساويين مشرقة أو مشربة حمرة — ولا يدل ذلك على الصحة دائماً وقد يدل على المرض . وترى صاحبه يميل الى النعاس بعد الطعام ويظهر ذلك في ساقة المركبات بباريس . لان أحدهم اذا لم يكن سائقاً مركبته لا تراه الا نائماً على كرسيه ورأسه متدلّ على صدره وقد احمرت وجنتاه وانتفخت أوداجه . وحوادث المسكر بمصر على كثرتها قليلة بالنسبة الى تلك البلاد . ولكننا نشكو من شيوع الحشيش بمصر رغم منعه رسمياً . على اننا سمعنا بوجوده في باريس أيضاً بامكنة يعرفها طالبوه

بقي علينا النظر في أمرين مهمين من نظام الاجتماع عنــدهم نعني طبقة العامة والمرأة

العامة

ومن قبيل النظام الاجتماعي ان تكون الامة مؤلفة من طبقات ترجع الى طبقتين : الخاصة والعامة ويختلف حال كل منهما باختلاف الامم والاعصر وان تشابها على الاجمال في كل بلد . فالخاصة وهم أهل الوجاهة والثروة يغلب أن يكونوا ممتازين في نفوذهم ومعيشتهم ويكون العامة تابعين لهم في أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على تفاوت ذلك بتفاوت أحوال المدنيه وأنواعها

فالعامة في التمدن القديم كانوا كما قال الامام علي « همج رعاع أتباع كل ناعق » وقال معاوية « انهم أشباه البهائم ان جاعوا ساموا وان شبعوا ناموا » وهم نحو ذلك في الشرق الى الآن الا في بعض البلاد الراقية . أما في الغرب فقد تغيرت أحوالهم حتى أوشكوا ان يقلبوا نظام الاجتماع ولا سيما في البلاد الجمهورية ومنها فرنسا وهو موضوع كلامنا في هذا الباب

العامة في فرنسا

ان العامة في فرنسا يختلفون عن عامتنا بامور كثيرة : منها انهم أرقى تربية وأوسع تعلماً فلا تجد فيهم من لا يحسن القراءة والكتابة . وحيثما توجهت ترى البوابين وساقة المركبات وصغار الباعة وخدم

المنازل والقهوات حتى مساحي الاحذية يطالعون الجرائد والكتب ويهتمون بالشؤون العامة ويبحثون في السياسة ويتناقشون في التعاليم الاحزاب وينتقدون أعمال الحكومة . والسبب في ذلك « حقوق » فانه عام في كل بلدة وقرية فتنبهت الاذهان وتفتحت الاعين وتعلم العامي معنى الاجتماع والاتحاد وخصوصاً بعد الانقلاب الذي جعل كل شيء في ايدي العامة لانهم قلبوا الحكومة واستبدوا في الشرفاء والامراء . فتشكلت الاحزاب من العامة وارتقت نفوسهم. ورافق ذلك كثرة الاختراعات الصناعية التي أغنت أصحاب الاموال (الخاصة) عن كثير من العمال فتضايق العمال وهم من العامة واضطروا الى الاجتماع والاحتجاج والمطالبة وهو الاعتصاب . وساعدهم على ذلك شيوع مذهب الاشتراكية واحتياج النواب الى العامة في التصويت عند الانتخابات النيابية وكل نائب يجتهد في اكتساب رضى القوم في البلد الذي ينوب عنه حتى يصوتوا له . فازداد العامة نفوذاً وطمعاً واكثروا من الاعتصاب حتى أتعبوا اصحاب الاموال وحملوهم خسائر عاد معظمها على الجمهور لانها آلت الى ارتفاع الاسعار

فالحرية التي نالها العامي الفرنساوي صانت حقوقه من جهة لكنها أضرت به وبالامة من جهة اخرى . لان العامي مهما بلغ من ارتقائه لا يبرح قصير الادراك وانما يتدرب على الاجتماع والصياح مع الصائحين فينحاز الى هذا الحزب او ذاك لا عن تفطن

وادراك وانما هو يساق بعواطفه ويندفع بما يخطر له حسب المؤثرات الخارجية . والعامي الفرنساوي مدمن للمسكر كما تقدم . أضف الى ذلك حدة مزاجه فاذا ضربت له وترا حساسا كالدين او الوطنية او غيرها اندفع لما تريده منه . فالغلبة لمن يستطيعون استهواء هؤلاء العامة لاغراضهم بالفصاحة او نحوها

والنفوذ الحقيقي للخاصة لانهم أقوى عقولا واكثر وسائل — ذلك هو شأن الجماعات في كل بلد : يختصم الخاصة على السيادة او الكسب فيستنصرون العامة بعضهم على بعض بما يستطيعون من الاساليب فينصرونهم وينفذون أغراضهم والعامة يتوهمون انهم يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم . مهما بلغ من رقي العامة وحريتهم فالخاصة هم أصحاب السيادة الحقيقية وهم كالاوصياء على العامة يسنون لهم الشرائع ويضعون لهم القوانين ويدربونهم في شؤونهم السياسية والاجتماعية حتى أحوالهم اليومية . فان الحكومة الفرنساوية تهتم بها كثيرا وقد فرضت على العامل ان يرتاح يوماً في الاسبوع فاذا لم يفعل عدّ مذنباً . واذا كان عمله لا يأذن له بالراحة كخدمة المطاعم والقهوات ونحوها دبرت الحكومة وسيلة تمكنه من الراحة . وذلك انها أمرت العامل من هؤلاء ان يختار يوماً من الاسبوع يرتاح فيه وعينت من يقوم مقامه في ذلك اليوم ويستولي على اجرته. وعندهم طائفة من العمال تحت الطلب لهذا الغرض . فبهذه الواسطة يشغلون سبع العمال ويريحون جمهورهم . لكن بعض العمال يشتكون من هذه

المعاملة لانها تضيع عليهم سبع دخلهم ولانهم ينفقون في يوم الراحة اكثر من يوم الشغل . والانكايز عناية مثل هذه او أشد منها في تدبير شؤون العامة سنأتي عليها في مكانها

المرأة في اوربا

كانت المرأة في الاعصر المظلمة باوربا وغيرها مرذولة محتقرة تعد من قبيل المتاع وكان للرجل أحياناً ان يبيع امرأتهُ بالمزاد العمومي . وتفنن الكتّاب والشعراء في هجائها وانتقادها . وتباحث اللاهوتيون طويلاً في « هل للمرأة نفس » وزعموا انها « باب جهنم » و « معمل أسلحة الشياطين وصوتها فحيح الافاعي » وانها « نبال الشيطان » و « سامة كالصل وحقودة كالتنين » وقال الشاعر العربي :

ان النساء شياطين خلقن لنا   نعوذ بالله من شر الشياطين

فلما بزغ نور التمدين الحديث وتحولت العلوم والمعارف من النظريات والتقاليد الى الاختبار والدرس كان في جملة ما همهم « المرأة » فادركوا خطارة مركزها في الهيأة الاجتماعية وان النجاح معقود بتعليمها وترقية نفسها . لانها قوام العائلة ومربية الابناء وشريكة الرجل في أحوال الحياة . فقدموها وعلموها ورفعوا منزلتها فقامت تطالب بحقوقها . واختلف الكتّاب في مقدار تلك الحقوق لكنهم اتفقوا على احترام المرأة واجلالها حتى مثلوا بها الفضائل والمفاخر .

فاذا أرادوا تصوير الحرية مجسمة نحتوا لها تمثال امرأة . وهكذا فعلوا بتمثيل الاتحاد والبلاغة والعمل وغيرها من الفضائل المجردة فانهم يمثلونها بصورة امرأة . والفرنساويون من اكثر الامم احتراماً للمرأة

المرأة الفرنساوية

اخرجوا المرأة من ظلمات الجهالة واطلقوا سراحها واعترفوا بحقوقها وساووها بالرجل ما له وما عليه . فبرزت من خدرها وتعاطت أعمال الرجال وسابقتهم في كثير من أعمالهم لانها اقل اجرة من الرجل فكثر استخدامها في ما تستطيعهُ من المناصب والمهن . فمن النساء عندهم بائعات في المخازن وعاملات في المناجم والمصانع والمعامل وخادمات في المنازل وكاتبات في المتاجر والشركات وفي بيوت التلغراف والتلفون والبريد وحاسبات في المصارف . وقد تعاطين أهم المهن العلمية كالمحاماة والطب والتحرير والشعر والتأليف والوعظ والعمل في معامل الكيمياء والبكتريولوجيا وغير ذلك وأنشأن الجمعيات العلمية والادبية والاندية الاجتماعية . وألفن الاحزاب السياسية للمطالبة بحقوقهن . وتعاطين كثيراً من الصنائع الحقيرة او المتعبة فمنهن غارسات في الحقول ومنظفات في الشوارع — حتى سوق المركبات فقد شاهدنا واحدة منهن تسوق مركبة بالاجرة في شوارع باريس فادهشنا ذلك فاخبرنا صديق كان معنا ان في باريس ١٢ سائقة مثل هذه

والسبب في نزول المرأة هذه المنزلة عندهم ان الفتاة الفرنساوية تنشأ في منزل والديها كما ينشأ الغلام ويطلب منها ان تتكسب بالشغل كما يتكسب هو . وهي تجالس الرجل وتحادثه وتباحثه في كل موضوع كانها رجل مثله وتسافر للسياحة والاستكتشاف وحدها لا ترى في ذلك بأساً او غرابة مما لم نأنفه في بلادنا . فان فتاتنا تتعلم او لا تتعلم ثم تمكث في منزل والديها في انتظار نصيبها للزواج وزينتها الحشمة والحياء ولا يخطر لاهلها ان تعمل عملا . فهي اما ان تتزوج او تبقى عانساً في بيت ابيها ولا تشتغل الا نادراً . واكثر اشتغالها بالتعليم او الخياطة ويندر ان تتعاطي عملا آخر . ومهما بلغ من حريتها فهي لا تجالس غير معارفها وذوي قرباها

اما الافرنجيه فحالما تخرج من المدرسة تمضي الى السوق كما يمضي الشاب فاذا اتاها النصيب تزوجت فيشغلها الزواج عن الارتزاق اكتفاء بعمل زوجها . والا فانها تشتغل هي ايضاً . ولا يخفى ما ذلك من تضاعف الايدي العاملة في الامة الفرنساوية اي ان العمال من الجنسين نحو ضعفي العمال عندنا بالنسبة الى عدد السكان

والمرأة الفرنساوية في القرى والبلاد الصغيرة مثال الاقتصاد والترتيب والعطف على اولادها والامانة لزوجها وكذلك المرأة في العائلات الراقية من الطبقة الوسطى والعليا . لكن هذه الحرية أدت في المدن الكبرى الى تشويه ذلك الجنس اللطيف في طبقة معينة من العامة . وهذا التشويه آخذ في الامتداد ويخشى ان يجرّ

الى انقلاب اجتماعي وخصوصاً في باريس ام المدائن الجميلة

كنا نشكو من جهل الفتاة الشرقية وحجبها ونحسد الفتاة الافرنجية على تعلمها وحريتها فلما رأينا حالها في باريس انقلبت شكوانا وكدنا نرضى بالحجاب والجهل ـ انهم اساؤا الى ذلك المخلوق اللطيف بتلك الحرية المتطرفة . ارسلوا المرأة الى الاسواق تخالط الشبان وتبايعهم وتساومهم وتعاشرهم وهي ضعيفة حساسة فتعرضت لمفاسد كثيرة . واغراها الشبان بالمال فخدعوها . فلما خرجت من صف الحرائر خدعتهم . ثم آل امرها الى ضياع العمر في الشوارع والازقة لا تجد رزقاً الا باستهواء الشبان . وفي القاهرة مثال صغير من تلك الطبقة يعرفن ببنات الرصيف . اما هناك فانهن ألوف ولا تكاد تخلو منهن حديقة او منتزة او شارع ولا سيما في اثناء الليل ولا حرج عليهن بحجة الحرية الشخصية . والحكومة الفرنساوية تبيح الفحشاء على شروط وضعتها وقوانين سنتها . فاباحت للمتجرين بالاعراض ان يتبوأوا المنازل والقصور ويحشدون فيها الغواني اصنافاً والواناً يعرضونهن عرض السلع او الاثاث بلا عيب ولا حياء ولهم سماسرة في ايديهم شهادات من الحكومة تخول لهم معاطات تلك المهنة . ولهذه الطبقة من المتهتكين مجالس واندية وجرائد وكتب لترويج تلك البضاعة . وليس ذلك جائزاً في انكلترا . ولكن مصر اقتدت فيه بالفرنساويين كما اقتدت بسواه من اسباب تمدنهم . وما كان اجدرنا ان نأخذ الحسن النافع

من اسبابه ونعرض عن القبيح الضار

الارساليات المصرية

ومن قبيح هذه الحرية في باريس ان من تلك الشباك الجهنمية كثيراً في حي يعرف بالحي اللاتيني Quartier Latin فيه اكثر المدارس العالية التي ترسل مصر اليها شبانها ليتلقوا فيها الحقوق او الطب او غيرها . ولا مندوحة لهم عن الاقامة هناك والتعرض لتلك الاخطار في المراقص والملاعب حيث يختلط الشبان بالشابات . فلا ينجو من ذلك الخطر الا قوي الارادة ثابت العزيمة : ولكن الانسان ضعيف ولا سيما الشاب القادم من بلاد لا يرى فيها المرأة الا محتجبة وهو في بلده بين اهله ومعارفه يمنعه الخجل من مخالطة غير المحتجبات . أما في باريس وكل شيء فيها مباح فانه يرى الشبان والشابات في الطرق ازواجاً (غير مطهرة) ذكراً وانثى بلا حرج ولا خجل يتداعبون ويتغازلون . ويجد من رفاقه من يغريه على الرذيلة ويحببها اليه باسم الحرية فاذا احجم عيره بالضعف . فهل يلام أولئك الشبان على السقوط ؟ وانما اللوم على الذين يرسلونهم الى تلك المدارس . واذا كان لا بدّ للحكومة المصرية او الآباء من ارسال ابنائهم الى مدارس فرنسا فمن الخطأ ارسالهم الى باريس وتعريضهم لتلك الاخطار

على ان هذه الطبقة من النساء ليست كلها من أهل تلك العاصمة فان فيهن كثيرات من أهل الارياف الفرنساوية أو من

خارج فرنسا . وبعضهن من روسيا والمانيا وغيرهما . ويندر بينهن القادمة الى باريس بقصد العهارة . وانما يفد اكثرهن اليها للارتزاق ببعض المهن فيتعرضن للوقوع في تلك الفخاخ ويعينهن الفقر على الوقوع فيها لان البائعة في مخزن واجرتها فرنكان او ثلاثة في اليوم تنفقها على الطعام واللباس والمنام يقع نظرها كل يوم على عشرات من شبيهاتها في الخلقة او اقل منها جمالاً وكل منهن قد تأبط زندها شاب كساها أحسن الاقمشة وزينها باجمل الحلي . فاذا قويت هذه البائعة المسكينة على محاربة الحسد فانها لا تقوى على مدافعة من يتعرض لها من أولئك الشبان الذين يغرونها بالمواعيد العريضة . ويتحببون اليها باطراء جمالها وشكوى الغرام وغير ذلك فتقع في الشراك . ولا يعاشرها ذلك المغرم الا مدة ثم ينتقل الى سواها . فتصبح غير قادرة على العمل في مهنتها الاولى ويهون عليها الارتزاق من أمثال ذلك الشاب . واعتبر كيف تكون حالها متى ذهب شبابها وذوى جمالها !

فالعلة الاصلية في شيوع التهتك بباريس انما هو اطلاق سراح الفتاة ومساواتها للرجل وتكليفها الارتزاق مثله واباحة الحكومة للفحشاء رسمياً . وزد على ذلك ان الفتور الديني شائع في فرنسا حتى أصبح شبانها يعدون العهارة ضرباً من التجارة ولا فرق عندهم بين الفحشاء والتمتع بسائر ملاذ الحياة كالطعام والشراب والسماع ونحوها . فيغرون المرأة على ذلك فتطيعهم . وليس أقبح من فتور

المرأة في الدين لانها أقرب الى التقوى من الرجل وا كثر تعففها من طريق الدين خوف العقاب . وهي دقيقة الاحساس سريعة التأثر فاذا لم يشتغل قلبها بالتقوى والرهبة من العقاب خيف عليها السقوط اذ ليس لها ما للرجل من قوة الارادة . ومع ذلك فانه اكثر سقوطاً منها لكن الناس لا يعيبون سقوطه كما يعيبون سقوطها ـ وذلك من جملة مظالم نظام الاجتماع

في شوارع باريس ألوف من الفتيات لولا هذه الاسباب لكن أمهات وربات عائلات يربين أبناءهن رجال المستقبل على الفضيلة بدلا من ضياع شبابهن في الرذيلة ويضيع معهن ألوف من الشبان بلا عقب . لان هذه الاباحة من اكبر أسباب العقم في فرنسا اذ يمسك الشبان عن الزواج تخلصاً من متاعبه وهمومه واكتفاء بملاذه الوقتية بثمن قليل لا مسئولية بعدها ولا تعب . فلا نبالغ اذا قلنا أن فرنسا بين يدي خطر اجتماعي يهددها ولا تخرج منه الا بعد انقلاب عظيم

بلغ عدد اللقطاء في باريس للعام الماضي ثمانية عشر الفاً لا يعرف آباؤهم فهم من نتاج هذه الرذيلة . من نتاج الافراط في الحرية والفتور في الدين . ان الجهل والحجاب يضران المرأة ويؤخران الهيئة الاجتماعية عن أسباب المدنية . لكن الحرية الزائدة مع العلم او بدونه تفسد المجتمع الانساني وتضر بالعائلة . وحال فرنسا الاجتماعي اكبر شاهد على ذلك لان احصاءها يكاد يكون الآن كما كان

منذ أربعين سنة ولم تبق امة لم يتضاعف احصاؤها في اثناء هذه المدة

خلقت المرأة اما تدبر العائلة وتربي الاولاد . وتعليمها ضروري للقيام بمهمتها الطبيعية في الشؤون العائليـة . واما تكليفها باعمال الرجال فانه خارج عما خلقت له ـ الا اذا اضطرت اليه لاسـباب قهرية . ولـكننا نرى بعض كبار العلماء يجيزون لها كل عمل يعمله الرجل وان تتعاطى كل صناعه او مهنة لانها مساوية له . وبعضهم الف كتباً في هذا الموضوع خلاصتها ان المرأة يجب ان تعمل كل اعمال ارجال من صناعة او علم او تجارة او زراعة بحجة تضاعف الثروة بتكاثر الايدي في العمل . وهو رأي نظري لا ينطبق على حاجة المجتمع الانساني . اذا نزل الرجل والمرأة الى السوق من يربي الاطفال ويدربهم ويعني باحوالهم ؟ فان قيل ان المراضع والخدم يفعلون ذلك قلنا ان الطفل لا تربيه الا امه . واذا فرضنا قيام الخدم مقامها فالنفقات التي تستلزمها استخدامهم تستغرق ما تكتسبه المرأة بالعمل خارج بيتها

ومهما بلغ من ارتقاء الجنس البشري في الاستكشاف والاختراع فانه لا يقوى على قلب نظام ـ وهذا النظام يقضي على الام ان تربي طفلها بحيث لا يخرج من دائرة عنايتها . وأن يكون هو أهم مشاغلها مع تدبير بيتها وليس ذلك بالشيء اليسير . ان القيام بشؤون العائلة لا يقل أهمية عن أعظم عمل من أعمال الرجال في التجارة او السياسة او الصناعة او غيرها

الخلاصة

في مدنية فرنسا وغيرها من مدنيات اوربا حسنات كثيرة يجب علينا اقتباسها والاستفادة منها . ولكن فيها سيئات يجب تجنبها والابتعاد عنها . فالحسنات التي يحسن بنا اقتباسها هي :

١ معرفة الواجب
٢ المحافظة على الوقت وصدق المواعيد
٣ تهذيب اخلاق العامه بالتربية الصحيحة
٤ تعليم المرأد وتثقيفها
٥ ترقية التعليم والتوسع في الآداب
٦ العمل والجد

أما ما يجب علينا تجنبه من ادران تلك المدنية فاهمه :

١ الافراط في الحرية واستخدامها في غير موضعها
٢ ما يخالف الحشمة الشرقية . على ان نأخذ من العلم والتربية القدر الملائم لعاداتنا
٣ الفتور في الدين والمجاهرة بالكفر فانه من اسس ذلك الخراب

وسنتكلم عن متاحف فرنسا وآثارها في ما يلي

٧ ــ آثارها

المراد بالآثار عادة ما يتخلف عن الامة من الابنية والتماثيل

وغيرها من المصنوعات المحسوسة الدالة على عظمتها او مهارتها كالآثار المصرية واليونانية والرومانية . ولكن للامة آثاراً معنوية تتناقلها الامم عنها وتقلدها فيها فيكون لها اثر حيّ في تمدنها ونظام اجتماعها او علومها وآدابها فيذكرها لها التاريخ . كما نذكر أحرف الهجاء للفينيقيين والأدب والفلسفة لليونان والشريعة للحمورابيين واليهود والقواعد السياسية والحربية للرومان ونهوض امم الشرق للعرب . فآثار الامة الفرنساوية او معنوية او محسوسة :

١ — آثار فرنسا المعنوية

فآثار فرنسا المعنوية في هذه المدنية كثيرة منها :

١ً الحرية واستقلال الفكر : ان للفرنساويين الفضل الاول في نشر روح الحرية باوربا وغيرها . وهم قدوة الامم في بث هذه الروح على اثر نهوضهم لخلع نير الملكية والمناداة بالحرية والاخاء والمساواة

٢ً استخدام اللغة الفرنساوية في المخاطبات الرسمية بين الدول المتمدنة . فانه من آثار نفوذ الدولة الفرنساوية في العالم المتمدن

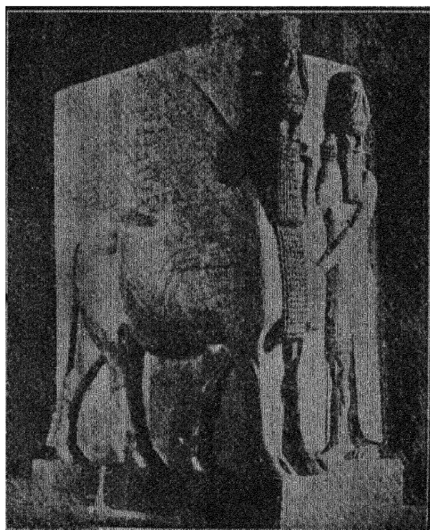
٣ً الالفاظ الفرنساوية السياسية والعلمية والادبية في لغات اوربا فانها من ادلة تفوق الفرنساويين في هذه الشؤون واقتباس تلك الامم عنها

فضلها على الشرق

لفرنسا فضل خاص على الشرق الأدنى من اوجه كثيرة



كأس عماد القديس لويس



الثور الاشوري

تظهر آثاره في أخلاق أهله وآدابهم . اذ لم يكن لهم علم باسباب المدنية الحديثة قبل أواخر القرن الثامن عشر اذ حمل عليها بونابرت يريد اكتساحها كما اكتسحها الاسكندر قبله . لكنه لم يأتها بالعدة والسلاح فقط بل نقل اليها بذور التمدن وأصول المعارف . فأرفق حملته الحربية بحملة علمية جمعت نخبة علماء فرنسا في ذلك الحين . لم يوفق بونابرت في فتوحه الشرقية فعاد على أعقابه وظلت تلك البذور كامنة حتى نهض من رجال الشرق من أحسن تعهدها وتربيتها فنمت وكان منها ما كان من نهضة مصر والشام . فالسوريون والمصريون والاتراك والفرس لما هموا بهذه المدنية كان معظم تعويلهم في اقتباسها على الامة الفرنساوية . فتعلموا لغاتها وترجموا علومها وقلدوها بآدابها وعاداتها وأخلاقها . كذلك فعل المصريون على يد محمد علي بأوائل القرن الماضي فان الاصلاحات التي احيا بها القطر المصري كان اكثر تعويله فيها على الفرنساويين . استخدم جماعة منهم في التعليم والتنظيم . مثل المسيو جومار المهندس الفرنساوي أرشده في الارساليات العلمية الى فرنسا . والدكتور كلوت بك أنشأ له المدرسة الطبية وسليمان باشا (الجنرال سيف) نظم له الجندية ولينان باشا هندس القناطر الخيرية . وهناك عشرات من رجال العلم والادب الفرنساويين استخدمهم محمد علي في نهضته . ونقل كثيراً من الكتب الفرنساوية الى اللغة العربية .

واقتبس طرق الفرنساويين في المدارس والجنـدية وفي الزراعة والصناعة وغيرها

واقتدى به خلفاؤه على العرش الخديوي ولا سيما اسماعيل فانه استخدم كثيرين منهم في الادارة والتعليم . وأشهرهم ماريت باشا مؤسس المتحف المصري. ولا يزال هذا المتحف في عناية الفرنساويين الى اليوم

والفرنساويون أول من أنشأ جريدة بمصر (فرنساوية) وهم أول من أسس مجمعاً علمياً فيها (institut) وأول من نقل اليها أدوات الطباعة ـ نعني المطبعة التي أتى بها بونابرت في حملته وكان يطبع عليها منشوراته وأوامره بالعربية . فلما أراد محمد علي أن ينشئ المطبعة الاهلية كانت تلك المطبعة أساساً لعمله

واعتبر ذلك ايضاً في سوريا فان للفرنساويين شأناً خاصاً فيها لانهم دخلوا في شؤونها منذ بضعة قرون ولا يزال السوريون حتى الآن يقلدون فرنسا في أسباب هذه المدنية وقد نقلوا أهم آدابها الى العربيـة . وقلدوا شعراءها وأدباءها وبعضهم يعرف عن تاريخ آداب اللغة الفرنساوية اكثر مما يعرف عن آداب اللغة العربية ـ الا التمثيل فان مارون النقاش اقتبسه عن الايطاليان لـكن من جاء بعده عوّل في اتقانه على الفرنساويين

ولما نهض الاتراك في الاستانة لاقتباس المدنيـة الحديثة كان اكثر اعتمادهم في نقل الآداب الحديثة على الفرنساويين . فنقلوا

عن روسو وموتسكيو وهوغو وغيرهم . واكثر الافكار الحديثة التي اقتبسها الشرقيون في القرن الماضي أخذوها عن أدباء الفرنساويين

وهكذا فعل الفرس لما أخذوا في نهضتهم باواسط القرن الماضي فان ناصر الدين شاه أرسل سنة ١٨٥٤ اربعين شاباً من ادباء الفرس وأهل العصبية الى فرنسا لتلقي العلوم كما فعل محمد علي قبله . وعاد هؤلاء الى بلادهم وعملوا على نشر العلم بانشاء المدارس على اختلاف مواضيعها . وهكذا فعل أيضاً في تنظيم الجند فانه نظمه على النمط الفرنساوي وبعث الى فرنسا ٢٠ ضابطاً تخرجوا فيها على ذلك النظام

٢ ـ آثار فرنسا البنائية

أما الآثار البنائية في فرنسا فانها كثيرة لا يمكن حصرها وانما نقتصر على ما شاهدناه منها في باريس وليون . وهو كثير يدخل فيه القصور والجسور والميادين والكنائس والمراسح والاضرحة نكتفي بفذلكة عامة عنها ونخص بالوصف أهمها

فالكنائس في باريس عديدة تزيد على ٧٠ كنيسة أشهرها نوتردام

نوتردام

هي كنيسة قديمة العهد أعيد بناؤها في النصف الثاني من القرن التاسع للميلاد ثم جددت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ولم يتم بناؤها الا في منتصف القرن الثالث عشر مع اضافات

وتجديدات لحقت بها بعد ذلك . وأجمل ما فيها من حيث فن البناء واجهتها تم بناؤها سنة ١٢٤٠

مساحتها ١٣٠ متراً طولا في ٤٠ متراً عرضاً و ٣٥ متراً علواً قبتها قائمة على ٧٥ سارية كبيرة اكثرها مستدير الشكل رومانيهُ . والمنبر في الصدر قائم على ١٠٨ أعمدة صغيرة متقنة الصنعة والنقش . وفي أرض الكنيسة وجوانبها عدد كبير من الاضرحة المشاهير ولا سيما أساقفة باريس . وأهم ما في هذه الكنيسة مما يهم القراء الاطلاع عليه خزانة تحفها . وهي غرفةٌ بنيت سنة ١٨٥٠ فيها تحف اكثرها حديث ليس له اهمية فنية وانما أهميتها بانتسابها الى مهديها . منها كاس مقدس من الذهب أهداه نابوليون الثالث للكنيسة . ومن التحف القديمة صندوق منقوش ينسب للقديس توماس بيكت على طرز القرن ١٣ ومن الآثار التاريخية الصليب المذهب الذي حمله القديس فنسان دي بول قرب فراش لويس الثالث عشر وهو يحتضر . والرداء الذي اتشح به نابوليون بونابرت عند تتويجه . ولكنيسة نوتردم برج علوه ٦٩ متراً

كنيسة لافورفير في ليون

ورأينا في ليون كنيسة قديمة العهد تعرف بكنيسة نوتردام دي فورفير يحج اليها الناس من أطراف العالم المسيحي باوربا . قائمة عن تل علوه ٢٩٧ متراً يصعدون اليها بترامواي كهربائي يجر بالاسلاك الغليظة يرجعون بتاريخ بنائها الى القرن التاسع . ثم تجددت

مراراً آخرها في أواخر القرن الماضي . وقد احتفظوا بكثير من البناء القديم . طول الكنيسة من الداخل ٦٦ متراً في عرض ١٩ متراً وإنما استلفت نظرنا ما على جدرانها من الصور الكبيرة المرسومة بالفسيفساء طول الواحدة بضعة أمتار في مثلها عرضاً مرسومة في الاجيال الوسطى . منها صورة معركة بحرية جرت سنة ١٥٧١ في مضيق لبانت قرب كورنثية بين أسطول السلطان سليم الثاني العثماني وأساطيل اسبانيا والبندقية وجنوى ومالطة والبابا بيوس الخامس . وهي معركة شهيرة في تاريخ الدولة العثمانية انتهت بفشل العثمانيين . كانت العمارة العثمانية مؤلفة من ٣٠٠ دارعة بقيادة القبودان موذن زاده علي باشا . والعمارة المسيحية مؤلفة من ٧٩ دارعة قيادة دون جوان دوتريش و١٢ دارعة للبابا بيوس بقيادة مارك انطوان كولونا و١٤ دارعة قيادة فانيرو البندقي . غير الجند الاسباني . ولما التقى الجيشان في ذلك المضيق تبادلوا اطلاق المدافع فأصيب القبودان العثماني قنبلة قتلته ففشل جنده . وتوقف العثمانيون عن مواصلة الفتح غرباً كما توقف العرب عن الايغال في اوربا بعد واقعة بواتيه التي غلبهم فيها شارل مارتل قبل ذلك بثمانية قرون

وقد مثل المصور تلك المعركة وفيها سفن الجيشين ومواقعهم حتى انتهت باحتراق سفن العثمانيين . وكل ذلك بالفسيفساء الملونة ولا تزال واضحة مع انها صنعت منذ نيف وثلاثة قرون

وهناك صور أخرى مثل هذه تمثل بعض الحوادث الدينية

منها وصول القديس بو نين الى ليون . وبعض تلك الصور كاد يمحى من طول الزمن

قصر الانفاليد في باريس

وفي باريس من التماثيل أو الانصاب في الشوارع العمومية عدد كبير ذكرناه في غير هذا المكان . فنكتفي هنا بذكر أهم ضريح يعظمه الفرنساويون ويشاركهم في تعظيمه سائر الامم نعني ضريح نابوليون بونابرت في قصر الانفاليد

وقصر الانفاليد بناء فخيم مؤلف من قاعات عديدة بعضها متاحف للاسلحة التاريخية وبعضها لمعروضات أخرى . أهمها القبة التي تتضمن ضريح نابوليون الاول سنعود اليها بعد الايجاز في وصف أهم ما يحويه قصر الانفاليد من الآثار والتحف وان كانت هذه من قبيل المتاحف لكننا نذكر هذا على سبيل الاستطراد

ففي ساحة القصر مدافع تاريخية منها ١٧ مدفعاً من جزائر الغرب عليها كتابة عربية الى أحد جانبيها مدفع صيني والى الجانب الآخر مدفع كوشنشيني . غير مدافع نمساوية صبت في فينا بالقرن السابع عشر حملها نابوليون الى باريس سنة ١٨٠٦ ومدفع حمل في معركة سباستبول سنة ١٨٥٦ وغيرها

أما القصر فقد بناه لويس الرابع عشر . بدأ به سنة ١٦٧١ مساحته ١٢٦ ٩٨٥ متراً مربعاً عرض الواجهة ٢١٠ أمتار أنشيء ليقيم فيه المتقاعدون من الجند الفرنساوي يسع ٧٠٠٠ جندي . وقد

تغير الغرض المراد به ذلك . واستخدموا قاعاته للمتاحف العسكرية منها متحف الطبجية والمتحف التاريخي . وفي متحف الطبجية نحو عشرة آلاف قطعه من البنادق والمدافع القديمة والحديثة مرتبة حسب أنواعها بينها الاعلام والادراع والخوذ . وفي جملتها أسلحة المانيـة من أوائل القرن السادس عشر . وبين الاعلام علم جان دارك . وفيها أسلحة البوربونيين من لويس الرابع عشر فما بعده وبينها سيوف فرنسيس الاول وهنري الثاني وشارل التاسع وغيرهم شيء كثير

وهناك أسلحة شرقية في قاعة خاصة بخزائن يختص كل منها بامة من امم الشرق فيها امثلة من أسلحتها مثل ملقا والهند والصين واليابان والبلقان وسركاسيا ومراكش وتركيا من السيوف والبنادق . بينها بندقيـة أمر نابوليون بصنعها في روتردام على الخصوص لسلطان مراكش . غير كثير من البنادق التركية وبنادق بربرية حملوها من سرقوسة سنة ١٨٠٨ وبنادق عربية وخناجر فارسية وخزانة خاصة بالاسلحة الاسلامية فيها أدراع عربية على كل منها اسم الله منقوش بالعربية

وقاعات للالبسة الحربية باختلاف الامم الاسيوية والافريقية وأصناف النـاس بينها المركبة التي نقلوا عليها عظام نابوليون من جزيرة القديسة هيلانة

أما المتحف التاريخي ففيه الاسلحة التي لها قيمة تاريخية في

جملتها اربعة من سروج المماليك غنمها الفرنساويون في معركة الاهرام سنة ١٧٩٨ . وسيف نابوليون الاول وقبعته وطبنجته وكبوته ودرع له اخترقتها رصاصة في معركة واترلو . وفي قاعات اخرى تذكارات من حروب الجزائر (سنة ١٨٣٠ — ١٨٥٧) وحروب القرم سنة ١٨٥٤ وحرب ايطاليا سنه ١٨٥٩ والصين سنة ١٨٦٠ والمكسيك سنة ١٨٦٢ وحرب فرنسا وبروسيا سنة ١٨٧٠ كل قاعة لنوع من الآثار . بعضها للثياب والبعض الآخر للاسلحة او الرسوم او الحلي غنمتها من حروبها في المستعمرات بالجزائر ومراكش والصحراء والسينغال والسودان ومداغسكر والهند الصينية وتونكين والصين . بينها رايات من وادي ومجوهرات الحاج عمر من النيجر وسيف مرصع لامبراطور انام اخذ منه سنه ١٨٨٥ وغير ذلك

ضريح نابوليون في قصر الانفاليد

هو عبارة عن قبة علوها ١٠٧ أمتار تشتمل ضريح نابوليون وكنيسته . والقبة عليها من الخارج نقوش مذهبة يشرف عليها القادم من بعد . اذا دخلتها وجدت في وسطها ضريح نابليون وبين يديه هيكل الكنيسة . والى جانبي الضريح أضرحة جماعة من قواد لويس الرابع عشر . وبين يدي الكنيسة أربعة مذابح مستديرة يدخل اليها من قناطر سفلية صغيرة فيها أضرحة أعضاء اسرة بونابرت . ولا يستطيع الواقف عند ضريح ذلك الرجل

العظيم الا الاعتبار والتأمل في ما أنفقه القوم في تعظيم ضريحه وما نصبوا حوله من الاعلام والتماثيل . ان الدهشة تستولي على المتأمل من ميل البشر الى تعظيم الفاتحين . لا تقدر وانت واقف بين يدي ضريح هذا النابغة الا الصمت والذهول لما يتجلى على المكان من الوقار كأنك ترى بونابرت واقفاً بين قواده ووزرائه وكلهم مطرقون رهبة واجلالا — وقفنا برهة ونحن نراجع تاريخ صاحب هذا الضريح فتبين لنا انه اكثر القواد طمعاً في السيادة وأقدرهم على القيادة وأشدهم استهواء لرجاله حتى كانوا يلقون انفسهم في النار تفانياً في طاعته ولا يبالون . قضى نابوليون أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر وهو يحارب ويجالد ويقلب العروش ودوخ الممالك ونثر التيجان وقتل النفوس . وقد مضى على سقوطه قرن ولا يزال العلماء مختلفين في تقديره كأن الدهشة لا تزال آخذة بعقولهم . أما الذي نعلمه ولا خلاف فيه فهو ان نحو مليونين من الناس قتلوا في سبيل له او عليه . وعقب تلك الحمى الاجتماعية ردُّ فعل عاد ببعض النفع للمجتمع البشري لا نظنه يعوض تلك الخسارة

أما الضريح فانه قائم تحت منتصف القبة على قاعدة من الرخام في حجرة من الرخام مستديرة كالحفرة قطرها ١١ متراً وعمقها ستة امتار لا غطاء فوقها . وفي وسط الحجرة قبر نابوليون يحتوي على بقاياه التي نقلت من جزيرة القديسة هيلانة سنة ١٨٤٠ وقد بنى ذلك

الضريح من سنة ١٨٤٢ — سنة ١٨٦١ وطول القبر من الاعلى اربعة امتار في عرض مترين وعلوه أربعة امتار ونصف متر . وهو مؤلف من خمس قطع من البورفير (الرخام السماقي) من فنلاند وعليه نقوش ورسم التاج واسماء المواقع الكبرى التي قاتل فيها نابوليون وهي : ريفولي والاهرام ومارنكو واوسترليتس وبينا وفريدلاند وواغرام وموسكو . وحول الضريح تماثيل منتصبة عددها ١٢ ترمز عن انتصارات نابوليون الكبرى . وعشر نقوش رخامية وست حزم فيها ستون راية مما اكتسبه من أعدائه . وفي داخل قبة الانفاليد كثير من تماثيل العظام كالقواد وغيرهم من أصحاب بونابرت

القصور والمراسح وغيرها

ومن قبيل الآثار في باريس القصور وهي عديدة كقصر الايزة وقصر اللوفر وسيذكر في الكلام عن المتاحف . وكذلك قصر لوكسبرج والتروكاديرو والبانتيون وغيرها . ومنها المراسح وهي أربعون مرسحاً وفيها الاوبرا الشهيرة . ومن قبيل الآثار ايضاً منازل العظماء من مشاهيرهم كمنزل اوغست كونت الفيلسوف الشهير ومنازل بلزاك وبيفون وكوفيه وهوغو . وفي كل منها آثار صاحبها من طاولة السرير ومكتب وقلم وكتاب وغير ذلك . ووصف كل منها يستغرق فصلا خاصاً وليس ذلك غرضنا هنا . ومنها الميادين او الساحات العمومية وهي نحو ستين ساحة أشهرها

ساحة الاوبرا وساحة الربوبليك ولاكونكورد والتروكاديرو والكوكب وغيرها .

٨ – متاحفها

المتاحف او مستودعات التحف والآثار لمنفعة الجمهور من مستحدثات هذا التمدن اتخذته الامم الراقية وسيلة لتوسيع معارف الناس وترقية نفوسهم . ولا نظنه بهذا المعنى يتعدى القرن الماضي . على ان الملوك والامراء كانوا قبل ذلك يختزنون التحف في قصورهم للتفاخر بها . ويعد من هذا القبيل متحف الملك احشويرش وهيكل افسس ودلفي واثينا وقصور البطالسة في الاسكندرية

متاحف الفاطميين

وكان للعرب حظٌّ وافر من هذه المتاحف لم يقتصروا فيها على جميع التحف الثمينة لكنهم أضافوا اليها كثيراً من الآثار التاريخية والصناعية . نعني متاحف الفاطميين بالقاهرة منذ نحو ثمانمائة سنة . وكانوا يسمونها الخزائن كخزانة الجوهر وخزائن الاسلحة والفرش والامتعة والبنود . وقد يظن لاول وهلة انها من قبيل مخازن اللوازمات الحربية ونحوها . لكننا عددناها من المتاحف لما كانت تشتمل عليه من التحف التاريخية المنسوبة لاصحابها من الخلفاء او الامراء . كالكؤوس البادزهر التي عليها اسم هارون الرشيد . وبيت هارون الرشيد الخز الاسود الذي مات فيه بطوس . وحصير

الذهب الذي يظن انه جلبت عليه بوران بنت الحسن بن سهل للمأمون وزنه ١٨ رطلا. ورقعة للشطرنج والنرد أحجارها من الجوهر والذهب والفضة . وكان في خزائن الفرش مقطع من الحرير الازرق التستري القرقوبي غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير كان المعز لدين الله امر بعمله في سنة ٣٥٣ ﻫ وفيه صورة اقاليم الارض وجبالها وبحارها ومدنها وانهارها ومسالكها شبه الخريطة . وفيه صورة مكة والمدينة مبينة للناظر وعلى كل مدينة وجبل بلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب أو الفضة او الحرير وكتب في آخره « مما أمر بعمله المعز لدين الله شوقاً الى حرم الله واشهاراً لمعالم رسول الله في سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة والنفقة عليه اثنان وعشرون الف دينار » . وبيت أرمني أحمر منسوج بالذهب عمل للمتوكل على الله لا مثيل له ولا قيمة صار الى تاج الملوك . وصار اليه أيضاً بساط خسرواني دفع اليه فيه الف دينار فامتنع عن بيعه

وكان في خزانة السلاح درع المعز لدين الله وسيف الحسين ابن علي ودرقة حمزة بن عبد المطلب وسيف جعفر الصادق . وكان عندهم في خزائن أخرى منديل القائم بأمر الله العباسي وغير ذلك . وناهيك بالجواهر والحلي الثمينة مما لم يعهد له مثيل عند غيرهم . هذه كلها ذهبت بالفتن في أثناء الدولة الفاطمية . وما بقي ذهب بذهاب الدولة

على ان هذه المتاحف كانت مقفلة لا يدخلها غير أصحابها فلا

نفع للناس منها وكذلك ما كان من هذا القبيل في الاجيال الوسطى باوربا . وأقدم من أنشأ المتاحف باوربا وفيها الآثار الصناعية ـ العلمية والتاريخية كوسمو الاعظم في فلورنسا بالقرن السادس عشر الميلاد . أي بعد ذهاب الدولة الفاطمية ببضعة قرون يليه متحف البابا ليون العاشر في الفاتيكان في ذلك القرن . والايطاليان أسبق دول أوربا الى هذه المنقبة مثل سبقهم الى انشاء المدارس العامية وهي أيضاً مما اقتبسوه عن العرب . واقتدت بهم سائر أمم اوربا . فأخذ الامراء والملوك يجمعون التحف والمصنوعات ونحوها في خزائن بلا ترتيب ولا غرض معين غير التفاخر بها . ولم تتحول الغاية من جمعها الى منفعة الجمهور الا في القرن الماضي . وفي باريس من هذه المتاحف عدد كبير سنأتي على وصف أهمها وبيان ما شاهدناه فيها مما يهم القراء

متاحف باريس

في باريس نحو اربعين متحفاً يمكن جمعها تحت عدة رؤوس حسب الغرض منها أو ما تحويه من الآثار أو التحف منها متاحف عامة فيها كل أنواع التحف من المصنوعات على اختلاف فنونها ومن الآثار التاريخية والفنون الجميلة وغيرها أهمها متحف اللوفر . ومنها متاحف فنيــة يراد بها تنشيط الفنون الجميلة كالرسم والحفر والتصوير مثل متحف لوكسنبرج . ومتاحف حربية لعرض الاسلحة ونحوها كالمتحف العسكري في قصر الانفاليد وقد تقــدم ذكره .

ومتاحف علمية أو هي معارض لعرض المجاميع الجيولوجية والتشريحية والحيوانية والنباتية ونحوها . ومتاحف دينية يراد بها الاحتفاظ بالآثار الدينية الكنائسية كمتحف جيمي . ومتاحف تاريخية وغيرها . غير المتاحف الخصوصية التي تقدمت الاشارة اليها بين الآثار مما ينسب الى أصحابه من المشاهير في منازلهم كمنزل هوغو وأوغست كونت وغيرهما . ولنبدأ بوصف ما شاهدناه في أهم متاحف باريس

متحف اللوفر

تاريخه

هو أفخم متاحف باريس وأهمها من حيث بنائه وما حواه من التحف . ولانشائه تاريخ يطول بنا ايراده وانما يقال بالاجمال ان اسمه مشتق من اسم غابة كانت هناك لصيد الذئاب اسمها لوبار واسم الذئب في لسانهم « لوب » فسمي المكان « لوبرا » ثم لوفر . ويقال ان أصل ذلك البناء قلعة بناها فيليب أوغست في أوائل القرن الثالث عشر في جملة سور باريس . ثم اتخذها شارل الخامس مستودعاً لذخائره وكتبه وجعلها منزلا لائقاً بالملوك . لكن ذلك البناء لم يبق منه شيء وانما بقي ما بناه فرنسوا الاول سنة ١٥٤٦ واتصل العمل بعده على عهد هنري الثاني (١٥٤٧ — ١٥٥٩) ومن خلفه . وفي جملتهم كاترين مديتشي

آرملة هنري المذكور وأولادها . وهنري الرابع وغيرهم . ولم يتم بناء هذا القصر الا في زمن نابوليون الاول فانه أمر سنة ١٨٠٥ بترميمه كله واتم ذلك نابوليون الثالث . فاتسع القصر اتساعاً لا يضاهيه فيه قصر من قصور العالم فان مساحته التي عليها البناء نحو ١٩٨٠٠٠ متر مربع أي ثلاثة أضعاف مساحة قصر الفاتيكان . ويقسم الى قسمين رئيسيين اللوفر القديم واللوفر الحديث منه جزء تشغله نظارة المالية . وفي ساحة القصر حدائق نصبوا التماثيل في أركانها — فيبدأ الزائر يهتم بذخائر اللوفر قبل دخوله فضلا عما يشاهده من فخامة البناء واتقان صنعه

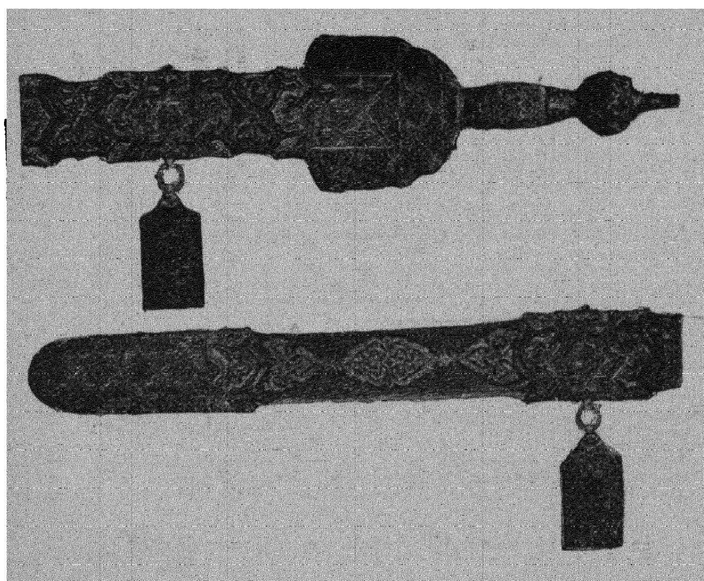
أما الذخائر والتحف التي يتضمنها ذلك فهي مفرقة في طبقاته حسب أنواعها ومواضيعها . في الطبقة الارضية الآثار الرخامية ونحوها مما يثقل حمله . ومن جملتها الآثار الاسيوية والمصرية ومنحوتات الاجيال الوسطى وأوائل النهضة الى هذا العصر . وفي الطبقة الاولى فوق الارضية معارض الصور الزيتية وسائر الفنون الجميلة من منحوتات ومسبوكات ومن سائر المصنوعات الثمينة قديمة وحديثة . وفي الطبقة الثانيـة معرض التصوير ايضاً ومعرض البحرية . وفي الاجنحة وغيرها معروضات اخرى

اما تاريخ اتخاذ قصر اللوفر متحفاً فيرجع الى القرن السادس عشر بعد نهضة التمدن الحديث بدأ الملوك بوضع بعض التحف او المصنوعات الجميلة واكثرها من ايطاليا . ولكنه لم يجتمع فيه

ما يستحق الذكر الا في زمن نابوليون الاول وقد جاء جنده بالغنائم من ايطاليا وغيرها وفيها الذخائر الكثيرة اضيفت الى ذلك المتحف . وما زالت تجتمع التحف فيه حتى صار الى ما هو عليه الآن ويعد من أعظم متاحف العالم . وهو لسعته لو أراد الانسان ان يطوف غرفه ماشياً لا تكفي لذلك ساعتين على الاقل فكيف لدرس ما فيه او وصفه ؟ ولذلك فاننا سنقتصر على ما يهم القراء منه

المنحوتات

ففي متحف الرخاميات القديمة في الطبقة الارضية من البناء ... ٣ قطعة مفرقة في قاعات عديدة نذكر منها على الخصوص قاعة الآثار الافريقية وفيها آثار شمالي افريقيا مصر وقرطاجة وتونس والجزائر . وقاعة الآثار الرومانية واليونانية على اختلاف الاعصر والمواضيع من تماثيل الاشخاص والوقائع صناعتها تدهش المتأمل . منها تمثال شاب جالس وهو عار ينزع شوكة من أخمص قدميه ملامحه واضحة لدرجة غريبة . ومنحوتات تمثل عادات الرومان واليونان من جملتها رجل عاد من الصيد فنزع رداءه وعلقه على غصن شجرة وعلق صيده بجانبه وأخذ يلاعب كلابه بارنب يوهمها انه يدفعه اليها ثم يرجعه . وتمثال آخر لرجل أخذ يلبس نعاله وهو يشد سيورها . غير عادات الرقص والموسيقى وتماثيل العظماء أو الرموز الدينية أو الميثولوجية بينها تمثال فينوس ميلو ويعدونه أتقن تماثيل اللوفر وقد تغزل به الشعراء والكتاب منذ



سيف ابي عبد الله محمد بن علي صاحب غرناطه

القديم وأعجبوا باتقان صنعه رغم نقص ذراعيه . وهو تمثال الزهرة حملوه من ميلوس . وفي بعض القاعات تمثال نصفي لاسكندر المكدوني الكبير ورأس هوميروس وتمثال ابولون وديانا وباخوس ورمز عن التيبر بديع الصنع

المنحوتات الشرقية

وقسم الآثار الاسيوية منها قاعة لاشور فيها الثوران الاشوريان الضخمان مما ينصبه الاشوريون بيبان الهياكل كما ينصب المصريون أبا الهول . والثور الاشوري رأسه رأس انسان رمز عن العقل وله قوائم الثور وأجنحة النسر دلالة على القوة . وهناك كثير من القراميد الاشورية عليها الكتابة المسمارية باللغة الاشورية

ومن جملة تلك الآثار انقاض بلاد السوس وفي جملتها مسلة حمورابي الشهيرة وعليها شريعته منقوشة بالحرف المسماري . وقد ذكرنا ترجمتها في السنة ١٣ من الهلال . وهي أقدم ما وصلنا من الشرائع المدونة (نحو سنة ٢٢٥٠ ق م) ومسلة نرام سين ملك اكاد (سنة ٣٧٥٠ ق م) وعليها صورة ذلك الملك يطارد أعداءه . والملك منيشتوسو ومسلته (نحو ٤٠٠٠ سنة ق م) وغير ذلك

وفي قاعة الآثار الفينيقية عدة نواويس فينيقية من الرخام الاسود والابيض تشبه النواويس المصرية — بينها ناووس اشمو ناصر ملك صيدا عليه كتابة فينيقية هي أطول ما وجدوه من الكتابة على

النواويس . وقاعة للآثار الفينيقية القبرسية فيها شيء من المصنوعات القديمة كالتماثيل والاعمدة والاقداح . وقاعة الآثار الاسرائيلية استلفت انتباهنا فيها على الخصوص مسلة ميشا ملك مواب في القرن التاسع قبل الميلاد وعليها كتابة موابية تصف حروب هذا الملك مع اليهود . وهي أقدم الآثار الكتابية الابجدية التي وقفوا عليها حتى الآن

وقاعة الآثار المصرية ويعدّ ما فيها من الآثار المصرية من أهم ما في المتاحف الاوربية من نوعها . في جملتها تمثال أبي الهول عظيم الحجم يستلفت الانتباه عند مدخل القاعة . وهناك ضريح تاهو من صنع العائلة الخامسة والعشرين المصرية وهو أتقن ما صنع في ذلك العصر . وتمثال سيتي الثاني وسبك حوتب . ومثال (نسخة) لمنطقة الابراج المصرية التي وجدوها في دندرة . وتمثال رعمسيس الثاني . وقاعة خاصة لمكتشفات ماريت باشا في السرابيوم بمصر وتمثال العجل ابيس

ومتحف القرون الوسطى وبدء النهضة الاخيرة فيه من التماثيل والمنحوتات المتقنة ما يدهش المتأمل اكثرها تماثيل نصرانية . منها قاعة ميشال آنج النحات الايطالي الشهير بينها تمثال رخامي لاميرين مغلولين يقال لهما العبدان صنعهما ميشال آنج في أوائل القرن السادس عشر ليوضعا على ضريح البابا جول الثاني في رومية يريد ان يمثل بهما الفضيلة مقيدة . وتمثال شارل الخامس ملك فرنسا (توفي سنة

١٣٨٠) وتمثال امرأته جان دي بوربون وغـير ذلك من التماثيل المتقنة . وهناك قاعات عديدة للمنحوتات الحديثة يضيق المقام عن ذكرها فضلا عن وصفها

معارض الصور

وفي الطبقة الاولى من اللوفر معارض الصور الزيتية وغيرها مما يستحيل الافاضة فيـه . ولا يقدر الكاتب على وصف ما في صوره من دقة الصنع ما لم ينقل الصور نفسها وهي تزيد على ٣٠٠٠ صورة يختلف حجمها من بضعة أمتار طولا الى أقل من متر. وكلها لمشاهير المصورين على اختلاف الاعصر والبلاد والامم . ويعـد هذا المعرض أغنى معرض من نوعه في متاحف العالم وأهمها . وفيه طائفة من أتقن ما صوره الايطاليون والهولنديون والفرنساويون وغيرهم . ومجموعة مدهشة من الصور الزيتية على القماش . ولصور رفائيل مجموعة حسنة مرتبة حسب تدرجه في اتقان هـذه الصناعة وفي جملتها صورة القديس جورجيوس يقتل التنين وصورة الملاك ميخائيل وغيرهما

ومن صور المصورين الاسبانيين شيء كثير نقلت من اشبيلية ومدريد فيها صورة الطفل مرغريت رسم فيلاسكس . وهناك صور من أحسن ما صنعه الاسبانيون والهولنديون ولا سيما جان فانديك الشهير ورامبران وفرنسال ومن المعروضات الالمانيـة لهولبين وغيره . وللانكليز في هـذا المعرض ٣٥ صورة بعضها لويلس

وكونستابل وبوننتن ورينولد وغيرهم وغير ذلك مما يعجز القلم عن وصفه . ونعترف بعجزنا عن وصف ما ألم بنا من الدهشة عند وقوفنا امأم هـذه المصنوعات البديعة . ولم يدهشنا اتقانها أقل مما أدهشتنا كثرتها . فان قاعة واحدة منها طولها ٣٫٥ متراً جدرانها مغطاة بالصور الزيتية المتفاوتة الاقدار والاشكال متزاحمة صفوفاً بعضها فوق بعض . وفي جملة هذه الصور صورة جوكوندة الشهيرة التي سرقت بالامس وشاع امرها

وبالاجمال فان تلك الصور بعضها يمثل المشاهير من الرجال او النساء . والبعض الآخر يمثل العادات كمجلس طرب بين أهل القرى في القرن السابع عشر . وولادة امير . وفتاة عائدة من المدرسة . مأتم دفن . وبيع اللحوم . او الحوادث التاريخية كموت سنيك . وموت شرويل . وضرب موسى الصخرة بعصاه . والعذارى الثلاث . وصلب المسيح . وتمثل الفردوس . ومحاكمة دانيال . او المناظر الطبيعية كتأثير الثلج في الطبيعة . ومقاتلة الذئاب . وأسد هاجم على جواد . وصورة الفجر . او الميثولوجيا مثل هركيل وفينوس وادونيس . ومنها صور طولها عدة أمتار تغطي جدران الغرفة كله . ومن اسماء المصورين روبن وفراغونار ورينول وماتيه وريغو وروبستي ودلتنيثورتو وجوردانو وشمباني وسنيدر ولارجليار وفان لو وفانديك ورفائيل وواتو وكوربت وماير وغيرهم كثيرون



حجر من رقعة شطرنج اهداها الرشيد الى شارلمان

والرسوم التي تمثل العادات الشرقية في هذا المعرض قليلة منها صورة تمثل استقبال سفير بندقي جاء القاهرة بملابسه الرسمية في القرن السادس عشر رسمها بليني طولها ثلاثة امتار بمترين

وهناك قاعات عديدة كل منها تختص بصور شهير جمعت مصوراته معاً وتسمى القاعة باسمه مثل قاعة فانديك وقاعة روبنسن وقاعة فرانس هال وغيرهم . وغير القاعات المنسوبة الى البلاد كقاعة الايطاليين وقاعة الهولانديين والفرنساويين . والمراد بها بيان ما تمتاز به كل امة من التفنن بالتصوير لفائدة طلاب هذه الصناعة من التلاميذ او الغواة وللفن الفرنساوي عدة قاعات حسب الاعصر كل قرن على حدة الى القرن التاسع عشر

معارض المصوغات والجوهرات

وفي هذه الطبقة من اللوفر قاعة كبيرة يسمونها قاعة ابولون هي أجمل قاعات المتحف من حيث بنائها وزخرفها . وقد وضعوا حول جدرانها اجمل الاثاث من زمن لويس الرابع عشر . وأقاموا في وسطها مواقف او خزائن (فترينات) وضعوا فيها من الجوهرات والمصوغات اثمن ما في اوربا منها ابريق من اليشب الاسمر صنع القرن السادس عشر . وابريق او مزهرية من اليشب الشرقي عليه ميناء في غاية الجمال . وابريق من اليشب . وفي فترينة اخرى مجموع مصوغات من عصر النهضة الايطالية وجواهر مصوغة في شكل قبة . وكؤوس من الجماشب عليها ميناء او بلا ميناء .

ومصوغات من صنع فرنسا وايطاليا . وأدوات كنائسية من العصر القوطي بينها كؤوس من البلور وأطباق من الذهب منزلة بالميناء صنع البندقية . وعلبة فيها ذراع شارلمان صنع المانيا في القرن الثاني عشر . وكأس للقديس لويس عربي الشكل عليه نقوش دينية ويعرف بكاس عماد القديس لويس . وغير ذلك من الادوات المقدسة والكنائسية يطول بنا ذكرها نكتفي منها بالمجوهرات الملوكية . واول ما استلفت نظرنا منها الماسة تسمى « ريجان » هي أجمل الماسة معروفة وزنها ١٣٦ قيراطاً ابتاعها فيليب اورليان سنة ١٧١٧ وتقدر قيمتها اليوم بخمسة عشر مليون فرنك . وبجانبها الماسة تسمى مازارين لونها هورتنسي بينهما ياقوتة كبيرة اسمها « كوت ديبريطاني » والى اليسار عقد من اللؤلؤ امامه سيف شارل العاشر مرصع بالجواهر الثمينة على غمده الحرف الاول من اسم نابوليون . وهناك مثال لتاج لويس الخامس عشر عليه امثلة من مجوهراته . وبجانبه تاج نابوليون الاول صنع سنة ١٨٠٤ تقليداً لتاج شارلمان أحجاره قديمة . وبينهما لوح تاريخي لذكرى صلح تيشن سنة ١٧٧٩ صنع المانيا . وامامه ساعة امير الجزائر اخذت منه سنة ١٨٣٠ وبروش لكاترين دي مديتشي من الالماس . وقس على ذلك عشرات من القطع الثمينة المصوغة بالذهب او الفضة والمرصعة بانواع الحجارة الكريمة من قديم وحديث صنع فرنسا او اسبانيا او غيرهما من القرن الحادي عشر فما بعده بينها اوسمة

ومداليونات مختلفة الاشكال

وبجانبها قاعة اسمها قاعة المصوغات فيها المصوغات القديمة قبل النهضة الاخيرة (انتيكا) بينها خوذة غالية من الحديد الموشى بالميناء من زمن الرومان . وعقد اتروسكي وفضيات وجدت في بوسكوريال قرب بمباي هي ٢٤ قطعة من الصناعة اليونانية الاسكندرية . بعضها لا يزال كانه صنع بالامس وعدد كبير من الخواتم اليونانية والرومانية والاقراط الاتروسكية وقطع مصوغة وجدها في ازمير وغير ذلك . وفي قاعة اخرى صورة زيتية كبيرة تمثل بونابرت في زيارته المطعونين بيافا (سوريا)

وهناك قاعة خاصة بمصنوعات قديمة من البرونز وجدوها في انقاض اليونان وغيرها من الامم الاوربية القديمة وقاعات كل منها خاصة بملك من ملوك فرنسا فيها رياشه وأدواته . احداها للويس الرابع عشر واخرى للخامس عشر فالسادس عشر وكل منها تحوي ما يستغرق وصفه عدة صفحات . ومعرض للرسوم فيه ٥٠٠٠٠ رسم من اقدار مختلفة وضروب متنوعة . وآخر لمصنوعات الاجيال الوسطى وقاعة لتحف اهداها روتشيلد للوفر تقدر قيمتها بعشرين مليون فرنك وتعرف باسمه

مصنوعات شرقية

وقاعة خاصة بالقيشاني الشرقي فيها قطع صنع دمشق في القرن السادس عشر وأخرى من القاهرة وعلبة عليها نقش باللغة بالعربية

يقرأ « المغيرة » يظن انه ابن عبد الرحمن الناصر صاحب قرطبة نحو سنة ٩٦٧ م ومصابيح للمساجد . وكأس عليه اسم ابو المظفر يوسف الايوبي سلطان حلب سنة ١٢٣٦ — ١٢٦٠ م

ومعرض التحف الاسيوية منها قاعة السوس وبلاد الكلدان وبابل وفينقية . أهم ما فيها مسلة فينقية الاله سلمان واخرى آرامية تعرف بمسلة تيماء ببلاد العرب . وأمثلة كثيرة من زجاج فينيقي ومصوغات فارسية قديمة وعقود من الذهب وقطع نقود وجدت في ضريح من البرونز من القرن الرابع قبل الميلاد . ونقود بيزانتية ومصوغات سلوقية وتماثيل اشورية من عصر سرجون الاول بينها خريطة مجسمة لنوموليس في بلاد السوس (سوزيانا) مثلت فيها الاودية والجبال . وقاعة اخرى للتحف الفارسية القديمة وفيها قطع بنائية من زمن ارتاكزرسيس . ومعارض لادوات الحداد والمآتم المصرية والآلهة المصرية يراد بها الميثولوجيا المصرية . ومعارض للصناعة القديمة في ممالك التمدن القديم ولا سيما بلاد اليونان

وفي قصر اللوفر جناح خاص بمعروضات الشرق الاقصى مما وهبه الفضلاء لخدمة الجمهور وكل قاعة باسم مهديها بعضه للصين أو اليابان أو فارس ولا سيما السوس (سوزيانا) مما يطول بنا شرحه . وشاهدنا عند مدخل اللوفر قاعة فيها قطع من جدران فينيقية مصورة بالفسيفساء عثر عليها رينان سنة ١٨٦٣ في كنيسة القديس خريستفورس قرب صور (سوريا) عليها رسوم حيوانات من



تاج ركينو نتس من ملوك الويسيقوط

أرانب وطيور وأسود وبقر وأسماك . منها قطعة على الارض طولها ١٢ متراً . ومثلها سبع قطع تختلف حجماً ورسماً . وضريح من رخام لكاهن قرطاجني وقطع عليها نقوش حملت من قرطاجنة وغيرها

وفي اللوفر من المصنوعات الجميلة المدهشة الابسطة أو الستائر (غويلين) المنسوجة بالصور تجلل الجدران من القرن الخامس عشر فما بعده وهي ثمينة وتمثل صوراً تاريخية

المكتبة الاهلية

المكتبة الاهلية الفرنساوية من أهم مكاتب العالم . ولا نريد الافاضة في وصفها هنا وانما أردنا الاشارة اليها اجمالا لذكر ما شاهدناه في معرض الاوسمة بجانبها . بناء المكتبة عظيم فخيم لا يزال العمل جارياً في توسعته ليشغل نحو ١٦٥٠٠ متر مربع . ويقال في تاريخ خزن الكتب فيها ان الكرولنجيين كانوا يعتنون بجمع الكتب الخطية وكان لويس التاسع المتوفى سنة ١٢٧٠ مكتبة خصوصية . وكذلك شارل الخامس ولويس الثاني عشر . لكن هذا الاخير يعد مؤسساً للمكتبة التي نحن في صددها في أوائل القرن السادس عشر . واشتغل خلفاؤه في توسيعها وحشد الكتب وغير الكتب فيها حتى صارت الى ما هي عليه الآن . وهي أربعة أقسام كبرى : (١ المطبوعات) والخرائط (٢) المسودات الخطية (٣) الرسوم

(٤) الاوسمة والتحف القديمة . وفيها قاعة للمطالعة واسعة جداً . ففي قسم الرسوم نحو ٢٥٠٠٠٠٠ قطعة محفوظة في نحو ١٤٥٠٠ مجلد و ٤٠٠٠ خريطة . وفي قسم المسودات الخطية ١٠٢٠٠٠ كتاب

وعلى بعض المسودات العربية في هذه المكتبة صور مرسومة من القرون الوسطى منها صورة على مسودة قديمة تمثل فرسان من العرب على أفراسهم يستخدمون النار اليونانية

وفي المكتبة معرض للمخطوطات والمطبوعات النادرة بينها خطوط العلماء المشاهير وتواقيعهم بأيديهم منهم رابلي وفيلون وراسين وروسو

معرض الاوسمة

هو من جملة بناية المكتبة وله باب خاص من الخارج . سمي كذلك لما فيه من ضروب الاوسمة والنياشين يزيد عددها على ١٥٠٠٠٠ قطعة . ولكن فيه تحفاً كثيرة هامة بعضها مصريّ منها منطقة البروج التي عثروا عليها في دندرة ويرجع تاريخها الى العصر الروماني . ومنها خزائن فيها تحف ثمينة تاريخية مثل ترس شيبيون بما عليه من النقوش الميثولوجية

أثران عربيان

وأهم ما شاهدناه هناك مما يهم القراء أثران عربيان يتوق كل عربي الى رؤيتهما

أولا : سيف أبي عبد الله محمد بن علي صاحب غرناطة آخر ملوك العرب في الاندلس الذي غلبه الاسبان في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد (سنة ٨٩٧ هـ) موضوع في خزانة مع تحف اخرى فوقفنا عنده برهة وراجعنا تاريخ صاحبه وكيف انقضت دولة العرب من اوربا بانقضائه

ثانياً : هدية هرون الرشيد لشارلمان ملك فرنسا . من المشهور على أقلام الكتاب نقلا عن كتبة الافرنج ان الرشيد أهدى شارلمان المذكور ساعة دقاقة هي أقدم ساعة في اوربا مع هدايا اخرى . ولم نجد ذكراً لهذه الهدية في كتب العرب القدماء وكنا نتوقع ان نعثر عليها في متاحف اوربا . وقد بحثنا بحثاً دقيقاً في المتاحف التي ترددنا اليها في الصيف الماضي بفرنسا وانكلترا وسويسرا فلم نقف لهذه الساعة على اثر ولا ندري اذا كانت موجودة في بعض المتاحف الاخرى

لكننا عثرنا في متحف الاوسمة الذي نحن في صدده على حجر شطرنج كبير الحجم يمثل فيلا عليه راكب . وقد عرفوه بانه بقية رقعة شطرنج أهداها هرون الرشيد الى شارلمان

متحف لوكسنبرج

هو متحف في قصر لوكسنبرج والقصر من أفخم قصور

باريس . بني بامر ماري دي مديتشي أرملة هنري الرابع في أوائل القرن السابع عشر واجهته الرئيسية طولها ٩٠ متراً . وقد رمم مراراً وخصوصاً سنة ١٨٠٤ بامر نابوليون الاول . وجعله مقراً لمجلس الشيوخ وجعله غيره لغيرهم لكن نابوليون الثالث أعاده لهم . وأقام في هذا القصر كثيرون من الامراء والاميرات وخصص جانب منه لعرض التحف الفنية كما عرضت تحف الاوفر لكن بعض الزائرين يزور القصر لحضور جلسات المجلس باذن خاص . وفي قاعة الاجتماع ٣٠٠ كرسي للشيوخ و٨٠٠ للحضور

وانما يهمنا من هذا المتحف ما حواه المصنوعات الفنية حفراً او نحتاً او تصويراً . وتقسم تحفه الى التماثيل والصور . وفيه طائفة حسنة من السجاد او الاستار المصورة بالنسيج مما يدهش الناظر . ومن العبث ان نحاول وصف ما هنالك لأسباب تقدم بيانها وانما نكتفي بالاشارة الى بعض ما يهم القراء معرفة وجوده

فمن المنحوتات ما يمثل بعض الحوادث التاريخية كتمثيل هاجر واسماعيل صنع النحات ايزلين كما يتوقع أن يكون حالهما من وصف التوراة لهما . وقتل قايين لأخيه هابيل . وتماثيل عظماء اليونان والرومان وغيرهم . منها تمثال داود النبي عارياً وفي يده سيف . وقد استوقف خاطرنا تمثال امرأة عربية تطرز على المنسج . ومنها طائفة تمثل الفضائل او الاخلاق او العواطف كالحرية والفرح والتقوى والحنو والحزن والتألم والخوف والسذاجة والمكر والخبث .

او تمثل بعض العادات منها فرس عربي وصاحبه بجانبه . وزنجي سوداني عليه عمامة وشملة . وجهه اسود اما العمامة والشملة فمن الرخام المعرق اللون يوهم الناظر انه قماش منسوج

وعلى كل تمثال اسم صانعه وفيهم نخبة من النحاتين المعاصرين منهم موابن وديبوا ومارسيه وكورديه وايزلين ورودين ودلا بلانش وادرلك ولا كورنيه وبويش وبداسو وهانو وغيرهم

اما الصور فانها تشغل عدة قاعات جدرانها مكسوة بالصور على اختلاف اقدارها مما يزيد طوله على ستة امتار الى اقل من نصف متر . ومن الصور الكبرى صورة في صدر القاعة الاولى تمثل قايين مهاجراً مع أهله وقد قوضوا خيامهم وساقوا أمامهم بألوانها وأشكالها . وصورة واقعه تاريخية في مراكش فاز فيها السلطان وساق الاعداء اليه أمواتاً وأحياءً . وصورة أيوب يتضرع لله . وصورة اليعازر قائماً من الموت . وغير ذلك ما يعد بالمئات وكل صورة يقتضي لوصفها عدة صفحات وكلها لاشهر المصورين من معظم الامم . وفي جملتهم ليفي وبوغورو وويرتس وديلوني وكورمون صاحب صورة قايين وهابيل وجرفكس وريبو وبونا صاحب صورة داود . وبازياس ورولنسن وكونستان صاحب صورة موقعة مراكش . وهيبر وجيروم وغيرهم

أما السجاجيد او الستائر المعروفة عندهم باسم غوبلين فانها عديدة اكثرها مبسوط على جدران قاعات المنحوتات يزيد عددها

على بضع عشرة استار قد رسموا عليها بالنسيج صوراً تاريخية او مجالس سياسـية . في جملتها صورة لويس الرابع عشر في مجلسه ونحو ذلك . وهي من صنع القرون المتأخرة

متحف كلني

هو في قصر أشبه بالاديار منه بالقصور بني في الاجيال الاولى للنصرانية يرجع في أصل بنائه الى أواخر القرن الثالث للميلاد ولم يبق من هذا البناء الا غرف الحمام . ثم صار في القرن الرابع عشر تابعاً لدير كليني فبنى الرهبان على أنقاضه مسكناً لهم على الطرز القوطي . تم بناؤه سنة ١٤٩٠ على يد الرئيس جاك دامبواز وقد حافظ على شكله . وسكنته ماري ملكة انجلترا ثالثة أزواج لويس الثاني عشر وهي التي تسمى الملكة البيضاء وغيرها . ولما حدثت الثورة الفرنساوية أصبح البناء ملك الامة . وفي سنة ١٨٣٣ جعله العالم الاثري اسكندر سومرار مستودعاً لتحفه واكثرها من مصنوعات الاجيال الوسطى واوائل النهضة ثم صار بعد موته للحكومة

والتحف المشار اليها من أجمل المصنوعات القديمة من كل نوع يزيد عـددها على ١١٠٠٠ قطعة فيها كثير من الادوات الكنائسية والمنسوجات الدقيقة بينها ضروب من التطريز والتخريم بعضه يشبه كثيراً مما يستحدثه أصحاب الازياء الجديدة في باريس. ولعل هؤلاء قبـل أن يستنبطوا زياً جديداً من المنسوجات أو

المطرزات يطلعون على ما في هذا المتحف وأمثاله من الأزياء القديمة ويستخرجون من مجموعها زياً جديداً . ومما شاهدناه من التحف ستارة (غوبلين) عليها صورة أصلها لرفائيل

وفيه قاعة للقيشاني وأشباهه تدهش المتأمل اكثر ما فيها من فرنسا واسبانيا وايطاليا . وفيها خزائن مملوءة بمصنوعات البندقية من الزجاج والاطباق عليها رسوم بديعة . رأينا على بعضها صورة شمشون ودليلة . وعلى طبق آخر رسم يونون وايزيس . وعلى غيره ولادة باخوس . وقيشاني اسباني عربي من القرن الرابع عشر فما بعده . وغيره صنع رودس

وقاعة الادوات اليهودية فيها المفروشات والمسودات والنقود والمصوغات . وطائفة حسنة من المصنوعات العاجية والبرونزية . ورأينا من المصوغات تسعة تيجان من الذهب عثروا عليها بين سنة ١٨٥٨ و١٨٦٠ قرب طليطلة باسبانيا اكبرها مرصع باللؤلؤ والزفير الشرقي وغيرهما من الحجارة الكريمة مرتبة بشكل حروف افرنجية ترمز عن اسم ركسيفونتس من ملوك الوسيقوط (من سنة ٦٤٩ — ٦٧٢) . ورقعة شطرنج حجارتها من البلور المعدني صنع المانيا في القرن الخامس عشر . وهناك طائفة من انواع الاسطرلاب والبوصلة والساعات من القرن السادس عشر والسابع عشر

متحف جريفن

هو متحف خاص من نوعه . فيه تماثيل من الشمع لمشاهير الرجال المعاصرين وغلاهم بملابسهم وأزيائهم . وقد اتقن صنعها حتى يصعب على الزئر أن يميز بين التماثيل المنصوبة منها والوقوف من الزائرين . وفي جملة التماثيل المشار اليها طائفة من رجال فرنسا وغيرهم مثل روشفور كوكاين وجول كلارسي وموريس بارس وكليمانسو وغيرهم . بين وقوف على انفراد او أزواج وجماعات كأنهم يتحدثون او يلعبون وقد مثلوا مواقف تاريخية مشهورة مثل عائلة لويس السادس عشر لما بلغها خبر الثورة وقد دخل الغوغاء عليهم . وروبسبير ودانتون وديمولين . وبيلي . ولافت . ولويس السادس عشر في سجنه . ومحكمة الثورة الفرنساوية وفيها القضاة . ومدام رولان ساعة المحاكمة . لا ينقص أحد منها غير النطق والحركة وميرابو في موقف الخطابة . والقبض على شارلوط كوردي . ونابوليون وجوزفين يسمعان الموسيقى . وهما في موقف آخر مع مدامو زيل اوغيه . ولويس نابوليون ومرات مع جمهور من السيدات . ونابولبون ساعة موته في جزيرة القديسة هيلانه وغير ذلك . وكل جماعة في غرفة فيها الريش والالبسة والادوات كما كانت في وقت الحادثة مما يدهش الناظرين

وفي الطبقة السفلى أمكنة كالدهاليز والسراديب مثلوا بها



مأتم المسيحيين في القرون الاولى سراً تحت الارض

أحوال النصرانية في أوائل أحوالها يوم كان المسيحيون يتكتمون بصلواتهم وطقوسهم وما كانوا يقاسونه من العذاب والاضطهاد . نقلنا منها صورة مأتم والقوم وقوف حول الميت يصلون عليه ويخافون الخروج به . لا يقدر الزائر لتلك الاماكن الا التخشع لما يظهر في ملامح أولئك المسيحيين من التقوى والخشوع وصدق الاعتقاد

ورأينا في جملة التماثيل تمثال جان دارك على جوادها بأسلحتها وبيدها العلم وقد وقف بجانبها حارسان من رجالها . ومجلس البابا بيوس العاشر في كنيسة سكستين وقد جلس على عرشه وبين يديه الكردينالية بين جالس وواقف وجاثٍ . وبالجملة فان متحف غريفن هذا من مدهشات الصناعة . وهناك متاحف أخرى في باريس يضيق المكان عن ذكرها نشير منها الى متحف جيمي وهو من المتاحف الدينية وفيه الآثار الدينية على اختلاف أشكالها باختلاف الامم القديمة والحديثة

٨ - متاحفها في ضواحي باريس

فرسايل

هي بلدة على نحو ٢٠ كيلو متراً من باريس فيها قصر لويس الرابع عشر ومن خلفه من ملوك فرنسا . سكانها نحو ٥٠٠٠٠ نفس

وفيها الشوارع المنتظمة والساحات الفسيحة والقصور الفخيمة . وقد بنيت في الاصل على بقعة رملية لا ماء فيها وانما رغب لويس المذكور في بنائها لصفاء جوها ونقاوة هوائها . فأنفق في انشاء قصره وجلب المياه اليها مالا طائلا . وأحصوا عدد الذين اشتغلوا في ذلك فبلغوا ٣٦٠٠٠ رجل و ٦٠٠٠ حصان . وبلغت النفقة عليها في أيام لويس الرابع عشر ما يقدر الآن بنحو خمسمئة مليون فرنك . غير الذين سخروا في العمل بلا اجرة . ولعل هذا الملك السعيد اقتدى بما فعله عبد الرحمن الناصر صاحب قرطبة ببناء الزهراء أو المنصور بن أبي عامر ببناء الزاهرة . او ابن الاحمر ببناء الحمراء في غرناطة . وتقدر نفقات الزهراء بنحو ٥٠٠٠٠٠٠٠ دينار أي نحو ما أنفقه لويس هذا على قصره في فرسايل . ولكن عدد المشتغلين في بناء الزهراء كانوا ١٠٠٠٠ و ١٥٠٠ دابة . على ان الزهراء أمحت الآن وعفت آثارها . وأما فرسايل فلا تزال باقيـة والفرنساويون يبالغون في الاحتفاظ بها

واتخذ لويس المذكور فرسايل مسكناً له سنة ١٦٨٢ ومنها كان يصدر الاوامر لحكومته أو جنده . وفيها تزوج مدام دي منتنون سـنة ١٦٨٤ بعد وفاة ماري تريز وصارت فرسايل بعد ذلك مقراً لملوك فرنسا . وفيها عقدت اكثر الاجتماعات السياسية الهامة في أثناء القرنين الماضيين قبل الثورة وبعدها وتقلبت على أحوال عسر ويسر . وفيها أمضيت معاهدة سنة ١٧٨٣ بين فرنسا وانكلترا على

أثر استقلال اميركا . وفيها نزل وليم الاول امبراطور المانيا من ٥ اكتوبر سنة ١٧٧٠ الى ٦ مارس سنة ١٨٧١ بعد تغلبه على الفرنساويين وتوج فيها امبراطوراً على الالمان

متحف فرسايل

هو في قصر فرسايل مسكن لويس الرابع عشر نفسه . والقصر وحده بما يكتنفه من الحوادث التاريخية يعد من أهم التحف ولبنائه تاريخ طويل . وهو كالبلد الكبير بما فيه من القاعات والغرف والدهاليز والاروقة والمراسح والمجالس . يسع نحو عشرة آلاف نفس . طول واجهته الكبرى ٥٨٠ متراً فيها ٣٧٥ نافذة . تم بناء القصر في القرن السابع عشر بما فيه من الرياش الفاخر والتحف التاريخية او الصناعية . وأنشأوا بين يديه الحدائق التي تأخذ بالابصار بما فيها من البرك والاشجار والغياض والبساتين . فلما كانت الثورة الفرنساوية بيع الرياش ونقل ما كان هناك من الصور الجميلة الى اللوفر . لكن لويس فيليب أعاد الى فرسايل رونقها فجعل قصرها هذا متحفاً جمع فيه أهم مفاخر الفرنساويين التاريخية والفنية سماه « المتحف الوطني » ويعرف ايضاً بمتحف فرسايل

ويقسم هذا المتحف الى قسمين كبيرين (١) قاعات لويس الرابع عشر وأهله وخلفائه فهي كالمتحف باتقان صنعها وما على جدرانها وسقوفها من النقوش البديعة (٢) المتحف التاريخي الذي أنشأه لويس فيليب وفيه عدد عظيم من الصور والتماثيل اكثرها

متوسط القيمة من حيث الصناعة . لكنه اراد ان يمثل بها تاريخ فرنسا بحسب اطواره ورتب ذلك في قاعات عديدة لا يكاد يجد الزائر وقتاً كافياً للمرور فيها فضلا عن درسها فنكتفي بالاشارة الى أهم ما فيها

ففي الجناح الشمالي من القصر كنيسة كان يصلي فيها أهل ذلك القصر متقنة النقش والوضع عليها كثير من النقوش الرخامية المذهبة والصور الدينية . منها صورة القيامة في وسط القبة . وعلى كل من المذابح صورة . وقاعات الصور التاريخية تقسم بحسب العصور او الادوار . منها قاعات تاريخ فرنسا من كاوفيس الى لويس السادس عشر فيها صورة زيتية كبيرة تمثل أهم حوادث التاريخ في تلك المدة لأشهر المصورين مثل دلاروش وروجيه وشيفر وغيرهم وقاعات الحروب الصليبية تمتاز باتقان جدرانها وما عليها من النقوش مع شارات قواد تلك الحروب (الارمات) فضلا عن الصور الكبرى التي تمثل الحوادث التاريخية الهامة . بينها صورة تتويج امبراطور القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م واخرى تمثل واقعة عسقلان سنة ١١٧٧ م بين الافرنج والمسلمين . وصورة معركة طولوسة بالسانيا بين الافرنج والعرب سنة ١٢١٢ م . وصورة طواف الصليبيين حول اورشليم سنة ١٠٩٩ م . وفي احدى هذه القاعات باب على النمط القوطي من مصنوعات فرسان رودس أهداه السلطان محمود الثاني لفرنسا سنة ١٨٣٦ م . ومن الصور التاريخية هناك



الامير عبد القادر الجزائري

صورة حصار رودس سنة ١٤٨٠ م وأخذ القسطنطينية سنة ١٢٠٤م نقلا عن صورة في اللوفر . وصورة فتح القدس سنة ١٠٩٩ وقطع الصليبيين البوسفور سنة ١٠٩٧ وهم زاحفون على الشرق لفتح بيت المقدس

وقاعات خاصة بصور تاريخية من سنة ١٧٩٤ ـ ١٨٣٠ بينها صورة نابوليون الاول مجروحاً في راتسبون سنة ١٨٠٩ صور أخرى عديدة يضيق المقام عن ذكرها

وفي قاعات الحوادث التاريخية العصرية في القرن التاسع عشر عدة صور تهمّ قراء العربية على الخصوص لانها شرقية تمثل وقائع الفرنساويين مع العرب في الجزائر تحت قيادة الامير عبد القادر المشهور . فانه حاربهم أعواماً طويلة حتى كادوا ييأسون من قهره ثم فقوا ذلك بالاستيلاء على « الزملة » وهي بلد نقال فيه ما يحتاج اليه الجند من الصناع والعمال والخفر وفيها أهله وأعوانه وأمواله وخزائنه ومؤنته والزملة عبارة عن خيام تحمل على الجمال في الصحراء ويحمل معها كل ما يحتاج اليه القوم من المؤونة والذخيرة . فاذا أرادوا النزول نصبوا الخيام بترتيب معين فيعرف كل واحد خيمته وعمله . وقد عمد الامير عبد القادر الى اختراع هـذه الزملة في أواخر حربه مع الفرنساويين بعد ان أصبحت بلاد الجزائر تتقد بالحروب فلم يعد يأمن الاقامة في مكان

فلما تعبت فرنسا من مناهضته أغرت صاحب مراكش على

معاضدتها . وعلم عبد القادر في أواخر سنة ١٨٤٧ بقدوم المراكشيين لغزو زملته ولم يكن فيها اكثر من خمسة آلاف والمراكشيون يزيدون على خمسين الفاً . فخاف الامير على رجاله وان لم يعرف الخوف قبلا . فعادت اليه نخوته فهجم ليلا بذلك الجيش القليل وفرق شمل المراكشيين . ثم عادوا فاجتمعوا ثانية فهاجموه فطاردهم وظهر عليهم لكنه خسر جانباً من رجاله فرأى الانسحاب أفضل له فرجع الى الجزائر فوصل مكاناً علم بعد وصوله اليه ان الجيش الفرنساوي على مسافة ثلاث ساعات منه ورأى ان جيشه قد انهكه السفر والحرب فخشى ان يقع هو وزملته في أيدي الفرنساويين لانه لا يستطيع الرجوع والمراكشيون من ورائه يطاردونه — ولكنه عاد فرأى أن يبذل قصاري جهده فجمع اليه رجاله وخطب فيهم مفصحاً عما هم فيه من الضيق وقال « أراكم قد وفيتم بما بايعتموني عليه وبذلتم جهدكم في معاضدتي . وأما الحالة الراهنة فتقضي علينا بالتسليم للعدو وعندي ان التسليم للفرنساويين خير من التسليم للمراكشيين فما رأيكم ؟ »

فاجابوه انهم على رأيه فنظر اليهم فاذا هم عدة من أحسن الرجل وأشدهم وقد رافقوه في حروبه خمس عشرة سنة فشق عليه ان ينتهي جهاده هذا بالتسليم للعدو ولكنه أذعن لحكم الضرورة قسراً وهو غير خائب لانه جاهد الجهاد الحسن اكثر من ١٥ سنة حتى نفدت الحيلة

وعلى ذلك تم التسليم لكن المصور تصوّر هجوم الفرنساويين على الزملة وعبد القادر غائب فمثل ذلك أحسن تمثيل في صورة طولها عدة أمتار شاهدناها في احدى الغرف قاعات متحف فرسايل ووقفنا عندها ساعة نتأمل ما تولى رجال عبد القادر من الذعر لما رأوا خيول الاعداء تكاد تأخذهم فبرزت النساء من الخيام مذعورات وأخذ الخدم في مساعدتهن في ركوب الجمال التماساً للفرار . وهرب بعض الاتباع وفيهم اليهود اصحاب خزينة عبد القادر . ونفر ما كان معهم من الحيوانات الاهلية وبينها الغزلان طلبت البرية . وبان الرعب في كل حي وظهر الاضطراب في كل شيء فقلبت الخيام وأجفلت الجمال وذعر الاطفال وبكت النساء مما يستوقف البصر

وفي تلك القاعات صورة نافرة تمثل نابوليون وقد أطلق سراح عبد القادر في امبواز سنة ١٨٥٢ . وصور زيتيـة لحصار قسنطينة سنة ١٨٣٧ وصورة أخرى لمعرض في المكسيك سنة ١٨٣٨ وصور عديدة لوقائع حربية في القرم سنة ١٨٥٤ من جملتها أخذ ملاكوف ومعركة ألما ومعركة سلفرينو وغيرها وكلها كبيرة الحجم

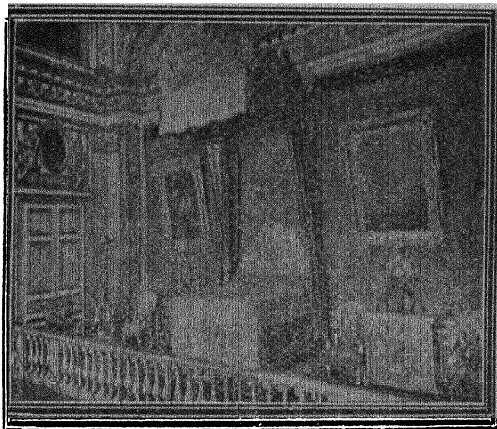
والقسم الاوسط من القصر تسمى قاعاته باسماء آلهة اليونان كالزهرة والمريخ وابولون وغيرها . فيها صور زيتية وستائر مصورة نسجاً مما يسمى (غوبلين) اكثرها تمثل حوادث تاريخية فرنساوية من جملتها ستارة تمثل الكونت فوانت في حضرة لويس الرابع

عشر باسم ملك اسبانيا . وأخرى تمثل اجتماع لويس المذكور وفيليب الرابع ملك الاسبان . وأخرى لزواج لويس الرابع عشر بماري تريز وغير ذلك . ومنها قاعة السلم . جدرانها مبطنة بالرخام وعليها أمثلة من الاوسمة البرونزية . وقاعة الزجاج طولها ٧٢ متراً وعرضها عشرة أمتار وعلوها ١٣ متراً مزخرفة زخرفة باهرة . لها واجهة من زجاج تطل على حديقة فرسايل وعلى جدرانها صور عديدة تاريخية لأزمنة مختلفة يطول بنا شرحها . وهناك غرف مختلفة لجلوس الملك أو طعامه وعلى جدرانها صور بينها صور تمثل وقائع « دونكي شوت » . وهناك ساعة رقاصة كبرى تدل على الساعات والايام والاشهر

ومنها غرفة الرقاد للويس الرابع عشر بفراشه وخزانته وكراسيه وسائر ما يلزم . وفيها مات سنة ١٧١٥ بعد ان حكم ٧٢ سنة

وقاعات الملكة مصورة الجدران وفيها كانت تنام الملكة ماري تريز حتى توفيت سنة ١٦٨٣ وماري لزينسكي ثم ماري انطوانيت وفيها صورة هذه الملكة وعدة ستائر (غوبلين) . ومنها قاعة خاصة باستقبال الاعيان كانت الملكة تستقبلهم فيها باوقات معينة وعلى جدرانها ستائر احداها تمثل زيارة لويس الرابع عشر لمعمل هذه الستائر وقاعة عرس الملكة وقاعات أخرى لمدام دي منتنون وغيرها

وفي الجناح الجنوبي من القصر قاعات عديدة للصور التاريخية .



غرفة لويس الرابع عشر

منها قاعة المعارك فيها صور أشهر المعارك الكبرى في جملتها معركة تورس بين العرب بقيادة عبد الرحمن الغافقي والافرنج بقيادة شارل مارتل سنة ٧٣٢ م وهي التي فاز بها الفرنساويون وردوا العرب عن اوربا

وصورة شارلمان في بادربون يستقبل وفود ويتيكند يقدمون الطاعة سنة ٧٨٥ م وصور أخرى تمثل الكونت اندس بدفع النورمنديين عن باريس سنة ٨٨٥ م ومعركة بوفين سنة ١٢١٤ ووصول هنري الرابع الى باريس سنة ١٥٩٤ ومعركة ريفولي سنة ١٧٩٧ وواقعة اوسترليتس سنة ١٨٠٥ ويانا سنة ١٨٠٦ وواغرام سنة ١٨٠٩ وجملة ما في هذه القاعة ٣٤ صورة و ٥٠ تمثالا نصفياً لكبار الملوك والامراء

وفي الطبقة العليا من هذا الجناح قاعات عديدة بعضها خاص بالثورة الفرنساوية فيها صور أهم حوادثها وأشهر رجالها . مثل الاحتفال بالاخاء الوطني سنة ١٧٩٠ وصور مدام رولان وماري انطوانت في الهيكل ومقتل مرات وتمثال نصفي لميرابو خطيب تلك الثورة وتمثالا لافيت ولويس ١٧ . وهناك قاعة خاصة لتصوير اعمال نابوليون الا ل وحوادث عائلته ومشاهير الامة في عهده . منها صورة تمثل قواد الحملة المصرية صورت سنة ١٧٩٩ وغير ذلك شيء كثير يختص بنابليون وحوادثه المدهشة في بيته وفي جيشه وأسفاره وحروبه وأولاده

وفي قاعات القسم الاوسط من هـذا القصر شيء كثير من الرسوم لتمثيل الحوادث التي جرت لفرنسا في القرن التامن عشر . في جملتها صورة كبيرة تمثل وصول سفير عثماني اسمه محمد افندي الى قصر التويلري سنة ١٧٢١ . وصورة أخرى لوصول سعيد باشا سفير الباب العالي سنة ١٧٤٢ وبينها غرف لنوم ولي العهد وأمه وغيرهما من اهل البلاط

تريانون

وفي فرسايل غير هذا القصر قصران يعرف كل منهما باسم تريانون احدهما الاكبر والآخر الاصغر كان يتردد اليهما لويس الرابع عشر مع بعض العائلات او الاعوان وهما متقنا البناء وفيهما تحف تاريخية او فنية . ففي الكبير منهما تحف من الرياش الثمين النادر . ومن جملة ذلك كؤوس من الوهج (الملكيت) اهداها القيصر اسكندر الاول امبراطور روسيا الى نابوليون الاول . وفي التريانون الكبير ايضاً معرض المركبات فيه ثماني مركبات احداها لنابوليون الاول ركبها لما تعين قنصلا اول وأخرى ركبها يوم زواجه . ومركبة قلدوا بها مركبة شارل العاشر وغيرها

وفي فرسايل حدائق غناء جروا اليها الماء في بحيرات مديرة بانابيب اذا فتحت تفجر الماء من أفواهها وصعد في الهواء على أشكال مختلفة وارتفاعات متفاوتة . وهم يحتفلون بفتحها في أوقات معينة من النهار يشهد الناس منظرها مما يشرح الصدر وينزه الخاطر

وقد يجتمع الالوف وعشرات الالوف في بعض الايام لهذه الغاية

قصر مالميزون

وعلى عشرة كيلومترات من باريس قصر مالميزون في ضاحية من أجمل ضواحي باريس فيها الحدائق والغياض على أجمل اسلوب واشتهر هذا القصر بجوزفين امرأة نابوليون لانها اعتزلت فيه بعد طلاقها سنة ١٨٠٩ الى وفاتها سنة ١٨١٤ ثم امتلكته ماري كريستين ملكة اسبانيا سنة ١٨٤٢ – ١٨٦١ وأقامت فيه الامبراطورة أوجيني زوجة نابوليون الثالث ردحاً من الزمن . وفي سنة ١٩٠٠ اشتراه داود أوزيريس المثري الفرنساوي الشهير (توفي سنة ١٩٠٧) وأهداه للامة مع ما يحيط به من البساتين

ليس أدعى الى التهيب والاعتبار بمصير الانسان من زيارة هذا القصر ومشاهدة ما لا يزال فيه من الرياش والادوات كما كان في زمن تلك الامبراطورة السيئة الحظ زوجة أعظم القواد وأطمع طلاب المجد . فانك تسمع من السكينة السائدة هناك نداءً يخترق الاسماع ويستولى على القلوب « ان الانسان مهما بلغ من جبروته وعظمته لا يبقى له غير أعماله ولا يذكر له منها الا ما أفاد به بني نوعه » . مررنا في غرف ذلك القصر الفخيم لا نسمع فيه غير وقع أقدامنا وكل منا مطرق يتأمل . مررنا بقاعة الاستقبال فقاعة الطعام فغرف النوم والكتابة والبلياردو والموسيقي وشاهدنا الخزائن والمقاعد والستائر والارائك والمناضد . وعلى جدران القصر الصور

الزيتية تمثل المشاهد الجميلة والحوادث الهامة ـ جيء بها الى ذلك القصر خدمة لاهله ولكنهم ذهبوا وبقيت هي

شاهدنا طاولة نابوليون التي كان يكتب عليها بيده وخزانة الكتب التي كان يرجع الى كتبها عند التحقيق . والقلم الذي كان يقبض عليه بأنامله . وفي قاعة البلياردو صور في جملتها صور حملها بونابرت من مصر سنة ١٧٩٩ منها صورة تمثل بعض المشائخ بألبستهم العربية المصرية جاءوا لمقابلة بونابرت وعدة سجاجيد جميلة

وفي القاعة التي كانت الامبراطورة جوزفين تستقبل فيها الزائرين سجادة ثمينة . وفي غرفة الموسيقى آلات موسيقية كانت تستخدمها الامبراطورة لترويح النفس وطاولة كان يلعب عليها بونابرت . وقس على ذلك سائر ما هنالك من الاثاث والادوات والصور منها صورة أم نابوليون ومنسج جوزفين وأدوات نابوليون وتمثاله وهو صغير . وعلبة شغل لجوزفين هدية من مدينة باريس . وسرير سفر لنابوليون وسرير جوزفين مجلل بالاطلس وصورتها سنة وفاتها . وعلى اكثر الكراسي الحرف الاول من اسمها (J) . وخزانة فيها مظلاتها ونعالها وجزادينها

لا تقدر وأنت تنظر الى تلك البقايا الا ان تتصور نابوليون واقفاً او جالساً هنا وهناك وجوزفين وما يخطر لها في عزلتها

السوريون في باريس

ونختم وصف باريس ومتاحفها وأحوالها بما شاهدناه فيها من



شارل مارتل يحارب العرب في معركة تورس

قدم السوريين في التجارة والادب والفنون الجميلة . لقينا فيها عشرات من اصحاب المتاجر وقد جاروا الفرنساويين بالتجارة ولهم منزلة رفيعة بين علية القوم وأحرزوا ثقة أصحاب المعامل والمصارف . ولأكثرهم معاملات واسعة مع الشرق والغرب واكثر اشتغالهم مع سوريا واميركا الشمالية والجنوبية يبعثون اليها السلع من مصنوعات باريس على اختلاف اصنافها . فمن البيوت التجارية السورية في باريس محلات رحيم وبوشديد وشحاده وسليمان ودقرت وشقير وبركة وداود وجاسر اخوان ودوماني ومانوك وقزي وبيجاني وشحيري وزوين ويانسوني وحوس (فرع لمحل صيدناوي) وغيرها من البيوت التي تتعاطى اصناف التجارة . وقد اختص بعضهم بتجارة المجوهرات اشهرهم كساب ونصبة وابو حمد . وبالعطريات محل بشاره ملحمة وله شهرة واسعة في فرنسا وانكلترا بما يصطنعه من العطريات المعروفة باسمه وقد نال جوائز السبق في المعارض الصناعية . وعرفنا من الماليين الكونت قريصاتي مدير البنك الفرنساوي المصري في باريس وهو من البنوك الكبرى وله فرع في مصر . وقس على ذلك مما يدل على اقتدار الشرقي على مجاراة الغربي اذا تساوت الاسباب والوسائل

ومما يوجب الفخر ايضاً اننا عرفنا في باريس نفسها غير واحد من الادباء السوريين يجارون ادباء فرنسا في آداب لسانهم يكتبون في اكبر جرائدهم السياسية في أهم المواضيع الحيوية او يؤلفون

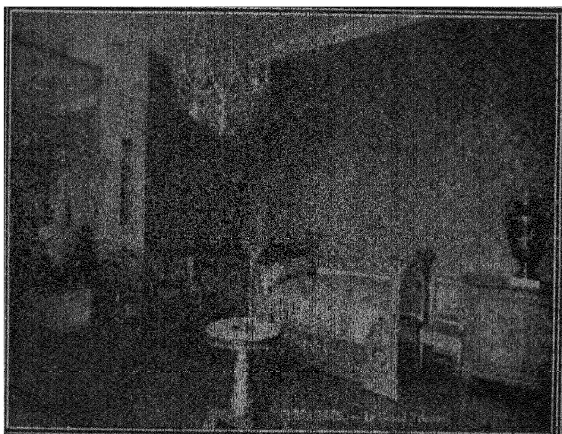
الـكتب ويـظمون الشعر بالفرنساوية بما لا يقل عما يفعله ادباء فرنسا انفسهم . منهم شكري غانم ناظم رواية عنترة وقد قبل تمثيلها في الاوبرا الفرنساوية . وخير الله خير الله صاحب كتاب سوريا يكتب المقالات السياسية في جريدة الطان الشهيرة . والدكتور جورج سمنه له مجلة علمية تصـدر بالفرنساوية بباريس اسمها Correspondances d'Orient وميشيل بيطار مترجم رواية العباسة أخت الرشـيد . وهناك طبقة من اصحاب الفنون الجميلة يشتغلون للافرنج أنفسهم . منهم موريس نجار يؤلف القطع الموسيقية للاجواق الفرنساوية التمثيلية وهو يرتزق هناك بهذه المهنة . ووديع صـبرا من اصحاب المواهب الموسيقية وقد عرفه الباريسيون . وفيليب موراني مصور فني يشتغل بالتصوير في باريس . وغير هؤلاء من الادباء واصحاب الفنون الجميلة . وقد اقتصرنا على الشرقيين المشتغلين بالفرنساوية للفرنساويين في باريس . ونعرف طائفة من المشتغلين بهـذه اللغة وآدابها بمصر والشام سنعود الى ذكرهم في فرصة أخرى . وقد يكون هناك كثيرون لم نطلع على آثارهم او لم تبلغنا اخبارهم . وانما اردنا تقرير حقيقة يسر تقريرها كل شرقي نعني « ان الشرقيين اذا توفرت لهم الاسباب جاروا أرقى الامم المتمدينة »

ثانيا - انكلترا

١ – نظام حكومتها

ان نظام الحكومة الانكليزية من نوع الملكي المقيد وانكلترا من أعرق الامم في الدستور وهي ام الحكومات الدستورية . يرجع الحكم فيها الى رأي الامة فلا تسن الحكومة قانوناً أو تنفذ رأياً الا بعد موافقة الامة عليه . وينوب عن الامة مجلسان يباحثان الحكومة ويجادلانها او يقترحان عليها هما مجلس الاعيان ومجلس العموم ويعبر عنهما بالبرلمان تأسسا في أوائل القرن الرابع عشر . ويلتئم البرلمان بايعاز الملك بعد اشارة المجلس الخصوصي قبل وقت اجتماعه بخمسة وثلاثين يوماً على الاقل . وجرت العادة أن يوالي اجتماعاته بين فبراير واغسطس من كل سنة للنظر في ما يعرض عليه من الشؤون . وبعد المباحثات والاقتراحات يصدر قرارته باغلبية الاصوات

يتألف مجلس الاعيان من الاشراف ويبلغ عدد اعضائه نحو ٦٥٠ عضواً وتنال عضويته اما بحق الارث او باقتراح الملك او باستحقاق المنصب كالاساقفة ونحوهم او بالانتخاب . ويتألف مجلس العموم من أعضاء ينتخبهم عامة الشعب لينوبوا عنهم وفيهم من ينوب عن المقاطعات او المدن المراكز او نحوها من انكلترا وسكوتلاند وايرلاندا . ويشترط في المنتخب أن يكون بالغاً رشده



غرفة منام نابوليون الاول

وان يكون اسمه مقيداً في سجل المنتخبين . وللحكومة شروط في نيل حق الانتخاب لا محل لها هنا . ويبلغ عدد المنتخبين نحو سدس الاهلين ثلاثة ارباعهم من انكلترا والباقون من سكوتلاندا وايرلاندا . وانتخاب اعضاء البرلمان سرّي ولا ينتخب عضو لم يتجاوز سنه ٢١ سنة ولا يجوز انتخاب احد من الاشراف لعضوية مجلس العموم

والقوة التنفيذية في الدولة الانكليزية في قبضة الوزارة او مجلس الوزراء لكنها تصدر باسم جلالة الملك . على ان هذا المجلس يتوقف تعيينه على مجلس العموم فهو يعين رئيس الوزارة باكثرية الاصوات وهذا يشكل الوزارة . ولذلك كانت الحكومة في ايدي الشعب . ومجلس الوزراء او النظار عندهم مؤلف من ١٨ وزيراً كل منهم يتولى رياسة دائرة من دوائر الحكومة وهي ثماني عشرة دائرة او وزارة : الخزينة والعدلية والختم الخاص والخارجية والهند والداخلية والمالية والمستعمرات والحربية البحرية وايرلندا والتجارة والمحلية والمعارف وسكوتلاندا والزراعة والاسماك والبريد ولانكستر على كلٍّ منها رئيس

٢ - عظمتها وعمرانها

ان المملكة الانكليزية بما يلحقها من المستعمرات اعظم الممالك المتمدنة واكثرها سكاناً وأوسعها ثروة . وهي تتألف من بريطانيا العظمى وتشتمل على انكلترا وويلس وسكوتلاتدا وايرلاندا . ومن مستعمراتها الكثيرة في القارات الخمس . فمساحة بريطانيا ١٢١٣٩١ ميلا مربعاً وعدد سكانها نحو ٠٠٠ ٠٠٠ ٤٥ نفس . واما المستعمرات فانها اوسع من ذلك كثيراً تقدر مساحتها باضعاف مساحة بريطانيا . فهي تزيد على ٠٠٠ ٥٥٩ ١١ ميل مربع وعـدد سكانها يزيد على ستة اضعاف سكان بريطانيا اي نحو ٠٠٠ ٠٠٠ ٣٠٠ نفس تتفرق على هذه الصورة :

مستعمراتها	مساحتها بالاميال	عدد سكانها
في اوربا	١١٩	٢١٣ ٦١٥
في اسيا	١ ٦٣٧ ٢١٥	٢٣٨ ٦٦٤ ٦٠٩
في افريقيا	٢ ٨٨٠ ٣١١	٤٣ ٤٦٧ ٦١٥
في اميركا	٣ ٨٦٥ ٢٦٥	٧ ٤٢٦ ٤٦٣
في اوستراليا	٣ ١٧٦ ٠٢٢	٥ ١٢٠ ٩٩٦
(المجموع)	١١ ٥٥٨ ٩٣٢	٢٩٤ ٨٩٣ ٢٩٨

وتناهز ميزانية الحكومة الانكليزية الآن نحو ٢٠٠ مليون جنيه تجمع من الضرائب المختلفة وتنفق في مصالح الحكومة والجندية والديون وغيرها

ثروة الامة الانكليزية

واذا نظرنا الى ثروة الامة الانكليزية رأينا ما يدهش العقل . وقد عقد احد الباحثين فصلا ضافياً في مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية في هذا الموضوع : خلاصته ان تجارة بريطانيا الخارجية بلغت في العام الماضي نحو ١٨٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيه اكثرها حمل في البحار . وان ثروة الامة الانكليزية نحو ٢٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيه . ودخلها في السنة نحو ٣٣٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيه . وما من دولة تداني الامة الانكليزية في الثروة . والمشهور ان الامة الفرنساوية تدانيها او تفوقها . ولكن كاتب المقالة المتقدم ذكرها يجعل ثروة فرنسا نصف ثروة انكلترا اي نحو ١٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيه ويقول ان اقرب الامم ثروة الى الانكليز الولايات المتحدة الاميركية فانه يقدر ثروتها بنحو ٢١٠٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيه

واكثر ثروة الامة الانكليزية في بريطانيا يليها الهند وكندا واوستراليا على هذه النسبة :

	ثروة الامة	دخلها
انكلترا وويلس	١٣ ٧١٦ ٧٧٩ ٠٠٠	١ ٧٤٠ ٠٠٠ ٠٠٠
سكوتلاندا	١ ٤٥١ ٦٢٥ ٠٠٠	١٧٣ ٥٠٠ ٠٠٠
ارلندا	٧١٤ ٢٧٩ ٠٠٠	١٠٣ ٠٠٠ ٠٠٠
الهند	٣ ٦٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٦٠٨ ٠٠٠ ٠٠٠
كندا	٢ ٠٧٢ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٥٩ ٠٠٠ ٠٠٠
اوستراليا	١ ٣١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	١٦٤ ٠٠٠ ٠٠٠
جنوب افريقيا	٦٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٧٥ ٠٠٠ ٠٠٠
نيوزيلاند	٣٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٤٠ ٠٠٠ ٠٠٠
الحمايات وغيرها	١ ٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	١٧٠ ٠٠٠ ٠٠٠
الجملة	٢٤ ٩٨٦ ٦٨٣ ٠٠٠	٣ ٣٣٢ ٥٠٠ ٩٠٠

وقابل الكاتب بين دخل الامة الانكليزية وما تنفقه في الدفاع عن حوزتها فبلغ نحو ثلاثة جنيهات عن كل مائة جنيه من الدخل أي ١٠٢ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه

ويهمنا من هذه المملكة الواسعة في هـذا المقام لندن العاصمة لاننا درسناها اكثر من سواها وفيها المتاحف والآثار سنصفها مع بعض البلاد الاخرى في ما يلي

٣ – مآثرها العلمية

التعليم في انكلترا ثلاث درجات : الابتدائي والثانوي والعالي فنقتصر هنا على وصف التعليم العالي في الكليات والجامعات .

وأقدم هذه المعاهد العلمية بني خارج لندن . وأقدم جامعات لندن أنشئت سنه ١٨٣٦ وظلت هذه وحيدة في لندن الى اوائل القرن الحاضر فانشئ سواها كما ستراه . واما خارج لنـدن فيرجع تاريخ بعض الكليات الى الاجيال الوسطى . وأرقاها جميعاً جامعتا اكسفورد وكمبريدج وسنعود اليهما عند وصف هذين البلدين من رحلتنا . اما سائر الجامعات والكليات في بريطانيا فأقدمها أنشئ في اسكوتلاندا في القرن الخامس عشر. وهذا جدول بأسماء جامعات بريطانيا وكلياتها حسب سني انشائها :

اسم الجامعة	مقرها	سنة تأسيسها
جامعة سنت اندرو	اسكوتلاندا	١٤١١
« كلاسغو	»	١٤٥٠
« ابردين	»	١٤٩٤
« ايدنبرج	»	١٥٨٢
« دبلن	ايرلندا	١٥٩١
« درهام	انكلترا	١٨٣١
« لندن	لندن	١٨٣٦
« فكتوريا		١٨٨٠
« برمنهام	برمنهام	١٩٠٠
« لفربول	ليفربول	١٩٠٣
« ويلس	ويلس	١٩٠٣

اسم الجامعة	مقرها	سنة تأسيسها
جامعة ليدس	ليدس	١٩٠٤
كلية جامعة لندن	لندن	١٩٠٥
جامعة شفيلد	شفيلد	١٩٠٥
« برستول	برستول	١٩٠٩
« ايرلندا الوطنية	دبلن	١٩٠٩
« بلفاست	ايرلندا	١٩ ٩

وهناك جامعات وكليات اخرى في سائر مدائن انكلترا الكبرى مثل منشستر وغيرها . واكثر الجامعات مؤلف من كليات تختلف عدداً باختلاف اهميتها . ففي جامعة لندن ٢٤ كلية وفي جامعة اكسفورد ٢٢ كلية وفي كمبريدج ١٧ كلية وتختلف ايضاً في عدد الاساتذة والتلاميذ . ولكن يقال على الاجمال ان الاساتذة في تلك الجامعات يتجاوزون بضعة آلاف والتلامذة يعدون بعشرات الالوف . ولأكثر هذه الجامعات أوقاف متوارثة ينفق من ريعها على التعليم وفيها المعامل الكياوية والبكتريولوجية والمعارض التشريحية والجيولوجية والنباتية والحيوانية وغيرها . اما المدارس الابتدائية والثانوية فيضيق المقام عن وصفها

ومعظم هذه المدارس تنفق الحكومة عليها على ان جمعيات التعليم كثيرة في انكلترا مما أنشئ لتهذيب الناشئة من الفقراء : منها جمعية في لندن تسمى « لله وللوطن » أنشئت منذ ٤٧ سنة

لجمع اللقطاء والمتشردين من الذكور والاناث وتعليمهم وتربيتهم وتثقيف عقولهم . وهي تجمع الاعانات من أموال المحسنين . وقد بلغ المال الذي جمعته الى الآن نحو ٤٠٠٠٠٠٠ جنيه منها ٢٣٥٠٠٠ جنيه جمعت في السنة الماضية . وبلغ عدد الذين آوتهم من الاطفال والمساكين في السنة المذكورة ٩٠٤٩ غلاماً وهي تعتني بهؤلاء المساكين وتعلمهم الصنائع وتبعث بهم الى المستعمرات ولا سيما كندا . وتشترط في قبول المعوزين ان يكونوا مقطوعين لا نصير لهم . ولا يقبل منهم الا ما بين الطفولية الى السنة ١٤ ولها بضعة عشر مركزاً في لندن والولايات المتحدة . ورئيسها اسمه الدكتور برناردو

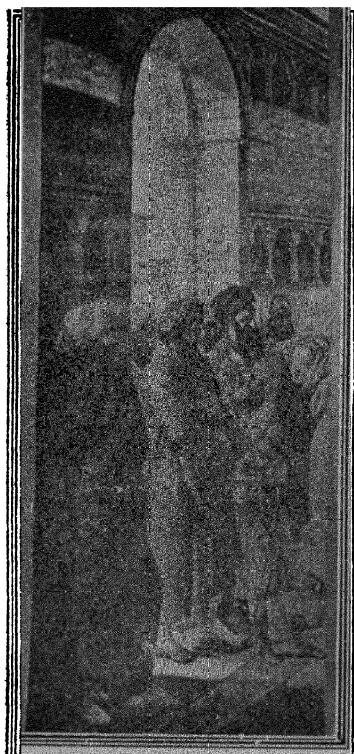
وللانكليز فضل كبير على العلم الحديث ولا سيما بما يتعلق بالاختراعات المحسوسة التي توقف عليها تسهيل المواصلات وتقريب المسافات كالسكك الحديدية والآلات البخارية وكثير من الصنائع الحديثة كالنسج والغزل والخياطة . ومنهم شارل دروين صاحب مذهب النشوء والارتقاء وشكسبير مؤسس نهضة الادب العصري وولترسكوت وملتن . غير أصحاب الاكتشافات العلمية في الطب والكيمياء والطبيعيات وعلم الحياة والاجتماع ومنهم ليستر وجنر وهكسلي وسبنسر . غير رجال السياسة والادارة أصحاب الادمغة الكبيرة

ومن قبيل الحالة العلمية تكاثر المكاتب وغرف المطالعة وهي

عديدة . وكذلك الصحافة فان في لندن وضواحيها نحو ٤٠٠ صحيفة بعضها يطبع مئات الالوف من النسخ كل يوم ـ غير المراسح للتمثيل والمعارض العلمية والجمعيات العلمية والادبية والاكاذيميات وغير ذلك مما يطول شرحه

وفي انكلترا اليوم حركة فكرية واقدام على الكتابة والتأليف في المواضيع المختلفة وقد أحصى بعضهم أشهر الكتاب الانكليز المعاصرين ورتبهم حسب المواضيع وخلاصة ذلك كما يأتي :

عدد الكتاب		عدد الكتاب	
١٢٥	في الادب	٣٥	في التاريخ الديني
١٧٢	« التراجم والمذكرات	٥٢	« تاريخ انكلترا
٥٧	« الدين	٤٠	« التاريخ الحديث
٨٩	« التمثيل	١٢٠	« سائر التواريخ
١٦	« انتقاد التمثيل	١٢٠	كتاب الصحف
٣٥	« الاقتصاد السياسي	٦٠	في القضاء
٦٠	« التهذيب	١٥٠	« اللغة الانكليزية وآدابها
٥٥	« الآثار القديمة	٢٠٠	« سائر اللغات
٢٥	« هندسة البناء	٢٠	« الموسيقى
٥٥	« الفنون الجميلة	٤٥	« الفلسفة
٥٧٠	« الفكاهات والروايات	١٨٠	« الشعر



مشايخ مصريون في زمن بونابرت

عدد الكتاب		عدد الكتاب	
٤٨	في السياسة	٤٩	في علم العمران
٣٨	« الطب	٥٠	« الصيد وتوابعه
٤٩	« التاريخ الطبيعي	١٤٠	« اللاهوت
١٥	« الرياضيات	١٤٥	« السياحات ونحوها
١٢	« الجيولوجيا	٣٠٢٧	(الجملة)

لندن

هي عاصمة المملكة الانكليزية طولها ١٤ ميلا ومتوسط عرضها نحو عشرة أميال ومساحتها بالتقريب نحو ١٣٠ ميلا مربعاً . فيها ٨٠٠٠ شارع اذا اتصلت حتى يتألف منها شارع واحد كان طوله ٣٠٠٠ ميل . وأحصوا أبنيتها بنحو ٦٥٠٠٠٠ بناء منها ١٥٠٠ كنيسة و ٦٥٠٠ محل عمومي و ١٧٠٠ ناد و ٥٠٠ اوتيل . وهي اكثر مدائن العالم سكاناً . يقدر سكانها بنحو ٦٠٠٠٠٠٠ نفس اكثرهم من الانكليز طبعاً . لكن فيها جماعات كبيرة من الامم الاخرى . حتى قالوا ان فيها من الاسكوتلانديين اكثر مما في ابردين ومن الايرلنديين اكثر مما في دبلن . وفيها من اليهود اكثر مما في فلسطين . ومن الكاثوليك اكثر مما في رومية . وسنعود الى وصف المتاحف والتحف ونكتفي هنا بذكر الفروق بين لندن وباريس :

الفرق بين لندن وباريس

(١) انهما توأمان في الفخامة والعظمة لكن لندن أوسع مساحة وأضخم أبنية وأظلم جوًّا . وأما باريس فانها أجمل منظراً واكثر زهواً وأشرق سماءً وأصفى هواءً

(٢) ليس في لندن أماكن للجلوس في سبيل اللهو أو الراحة كالقهوات والبارات التي ذكرناها في باريس . فالغريب اذا احتاج الى الراحة في غير المنازل ليس له الا المقاعد في الحدائق العمومية أو يمر بالشوارع للفرجة . وفي لندن حانات كثيرة لانواع الخمور وحوانيت لشرب الشاي أو القهوة أو غيرهما من المرطبات أو المخدرات . لكنها كالمخازن التجارية تطلب ما تريده وتتناوله وتنصرف كما تفعل لو أردت تناول الطعام في مطعم . وليس عندهم مجالس للتسلية الى موائد كما في القاهرة مثلا . والقاهرة من حيث القهوات وأماكن اللهو كثيرة الشبه بباريس . على ان بعضهم انشأوا في لندن أماكن من هذا القبيل تشبه ما في باريس لكنها قليلة وليست على قوارع الطرق

(٣) ان الماشي في شوارع باريس اذا اقتضى أن يوسع لمقبل عليه خوفاً من التصادم تحول نحو اليمين كما يفعل أهل القاهرة . فالمركبات والدواب والناس يتحولون في شوارع باريس الى يمينهم أما في لندن فبعكس ذلك . لان المارة في شوارعها اذا تلاقوا تحول كل منهم الى يساره . وقد نبهوا الناس الى ذلك بألواح كتبوا

عليها قولهم « الى اليسار » فاذا تلاقى اثنان وتحول كل منهما الى يمينه لا يتصادمان وكذلك اذا تحولا الى اليسار . أما اذا تحول أحدهما الى يمينه والآخر الى يساره فانهما يتصادمان . ولذلك فالفرنساوي والانكليزي اذا تلاقيا ومشى كل منهما على ما تعوده في بلده لا بد من تصادمهما !

(٤) ليس في لندن أماكن عمومية للفحشاء كما في باريس لان الحكومة الانكليزية تحظر على الناس الاتجار بها . خلافاً لمعظم حكومات اوربا وقد أحسنت انكلترا ويا حبذا لو اقتدت مصر بها في ذلك فأخذته عنها كما أخذت غيره من اسباب المدنية — ولكن مصر أباحت انشاء تلك الاماكن اقتداء بفرنسا وغيرها من الدول التي تبيحه وقد أخطأت كما بينا ذلك في الهلال

(٥) ان هيبة التدين ظاهرة في لندن اكثر مما في باريس ولا سيما في أيام الاحاد . فان تلك المدينة الضخمة التي تعج أسواقها بالناس عجيجاً في أثناء الاسبوع وقد بسطت فيها البضائع وعرضت السلع على قوارع الطرق تصبح في يوم الاحد خالية خاوية لا تجد فيها بائعاً ولا شارياً ولا صانعاً ولا عاملا . وانما يخرج الناس بعد الصلاة للنزهة في الحدائق العمومية أو غيرها في لندن وضواحيها . وهكذا تفعل سائر مدن انكلترا وقراها حتى السكك الحديدية فان حركتها تخف في أيام الاحاد والاعياد . فالانكليز من اكثر أمم اوربا تديناً وقد نفعهم ذلك في كثير من احوالهم الاجتماعية

(٦) ان عادة البخشيش شائعة في لندن لكنها أقل كثيراً مما في باريس لقلة القهوات والملاهي كما قدمنا

(٧) لا تجد في الشوارع العمومية من بنات الرصيف ما تجده في باريس

وسنعود الى لندن عند الكلام عن المتاحف والآثار

٤ ـ نظام الاجتماع فيها

نظام الاجتماع في انكلترا يشبه على اجماله نظام سائر الممالك الاوربية من حيث العائلة والحكومة والمدرسة والكنيسة . لكنه يمتاز في انكلترا بخصائص لا يخلو ذكرها من فائدة هاك أهمها :

١ ـ طبقات الامة

لا يخفى ان انكلترا أم الحكومات الدستورية وأقدم من اعترف بحقوق العامة . ومع ذلك فالامة عندهم مؤلفة من طبقتين متباينتين لا تختلط احداهما بالاخرى ـ نعني الخاصة والعامة أو الشرفاء والعمال أو الاعيان والعموم وذلك من بقايا القرون الوسطى التي كان فيها اللورد صاحب الارض وله السيادة هو وأهله على بلده وسائر الناس أعوان له أو عمال في مزارعه . وكان ذلك شأن اكثر أمم أوربا في عصر الاقطاع . لكن أكثرهم عدلوا عنه وساووا بين طبقات الامة في الحقوق والواجبات . الا الانكليز فلا يزال لأهل السيادات القديمة حقوق يمتازون بها عن سواهم في بعض الاحوال

السياسية والاقتصادية . ولكل من هاتين الطبقتين شأن خاص مستقل عن شأن الطبقة الاخرى . ونواب الامة طبقتان في مجلسين مجلس الاعيان ومجلس العموم وقد ترى مثل هذين المجلسين في بعض الامم الاخرى لكنه عند الانكليز مبني على تسلسل الارستقراطية من الاجيال الوسطى . ولا يزال كثير من الارضين ملكا للشرفاء يتوارثونها ولا يبيعونها بيعاً قاطعاً . وانما يبيعون مرافقها الى أجل معين . والغالب أن يبيعك الشريف الارض تملكها الى ٩٩٩ سنة فتدفع له ثمنها أو حق صيرورتها اليك بعد تلك المدة . . ويبقى له عليك مالٌ يتقاضاه كل سنة يتم الاتفاق عليه يسمونه في اصطلاحهم (Chief) وقد يحتالون في تمليك الارض حيلة شرعية فيتفق الشاري والبائع على مبلغ يدفعه الشاري مرة واحدة بدل الاقساط السنوية نحو ما تفعل الحكومة المصرية في استبدال معاش المستخدمين . فاذا دفع الشاري ذلك المال صار مالكا للارض . عرفنا صديقاً لنا في منشستر ابتاع منزلا من أحد الشرفاء بألفي جنيه دفعها معجلا وبقي عليه الاقساط (التشيف) نحو مائة جنيه يدفعها كل سنة . وأخبرنا انه ينوي ان يستبدل الاقساط بألفي جنيه أخرى فيصير المنزل ملكا له

فالانكليز عندهم الحرية والاخاء وليس عندهم المساواة . على انهم عاملون على نزع تلك الامتيازات من الشرفاء . وقد أفلحوا في كثير من مطالبهم لكن المساواة الكلية يبطئ الوصول اليها

التأصل الارستوقراطية في نفوس القوم من أجيال متوالية . حتى تراها في كثير من آدابهم الاجتماعيــة . ومن آثارها المحسوسة انه ليس في قطر السكك الحديدية درجة وسطى بين الاعيان والعموم . فالقطار عندهم فيه عربات من الدرجة الاولى وعربات من الدرجة الثالثة . ولا تجد درجة ثانيــة في قطرهم الا ما يتصل منها بالقطر الفرنساوية وغيرها على الحدود

٢ ـ ضرائب الدخل

لا تخلو دولة من ضرائب تضربها على رعاياها تسد بها نفقات رعايتهم والقيام على حراستهم أو القضاء بينهم . لـكن الانكليز يزيدون على ذلك نوعاً من الضرائب اقتضاه تفاوت الثروة في طبقات الامة . فجعلوا مقدار الضريبة بنسبة تلك الثروة ويعولون في تقـديرها على الدخل لا على رأس المال . فيفرضون على الغني أو التاجر مبلغاً من دخله السنوي يسمونه ضريبة الدخل . أصلها اعانة فرضتها الحـكومة على الامة للاستعانة بها على محاربة الفرنساويين سنة ١٥١٢ فقرر البرلمان يومئذ ان يدفع العامة ٢/١٥ من دخلهم تلك السنة والـكهنة الخمس . وفي سنة ١٧٩٨ زادوها لمثل ذلك السبب . وما زالوا يزيدون الضرائب وينوعونها ويعدلونها حتى بلغت ما هي عليه الآن . وهي تختلف حسب السنين ولـكنها نحو خمسة في المئة من الدخل أو شلين في الجنيه . ولا يدفع هـذه الضريبة الا الذي يبلغ دخله ١٦٠ جنيهاً في السنة فما فوق . ولهم شروط لمن يزيد دخله

على ذلك الى ٧٠٠ جنيه . فهؤلاء يعفونهم من بعض الضريبة . أما من زاد دخله على ٧٠٠ جنيه فيدفع الضريبة كاملة . وقد بلغ دخل الحكومة من هذه الضريبة نحو ٣٢٠٠٠٠٠٠ جنيه في السنة . غير ضرائب الجمارك وعوائد الروحيات وسائر المسكرات والمخدرات . وغير حق الرخص والاذن في معاطاة المهن على اختلاف أشكالها

٣ ــ العامة والعناية بهم

للعامة في انكلترا مشاكل من اعتصاب واضراب كما في فرنسا لكن للانكليز عناية خاصة بهم ولا سيما طبقات العمال والخدم . لعل ذلك من بقايا واجبات الارستوقراطية في العهد القديم . لان رب البلد (اللورد) كان يرى نفسه مسئولا عن حال أتباعه من حيث أسباب معائشهم . ولو تتبعت تاريخ وضع ضرائب الدخل المتقدم ذكرها لرأيتها تنوعت وتعدلت طبقاً لمصلحة العمال أو الفقراء من أصحاب التجارات الصغرى . كانت في أول وضعها شاملة كل انكليزي مهما قلّ دخله . ثم أخذوا يعدلونها حتى أعفوا منها أصحاب الدخل القليل الذي لا يزيد على ١٦٠جنيه . وخففوها عن الذين لا يزيد دخلهم على ٧٠٠ جنيه . وأبقوها على سائر الناس كما رأيت . ولا يخفى ان الاموال التي تجمع من الضرائب تنفق في مرافق الامة بلا تمييز بين الغني والفقير ــ أو هي لمصلحة الفقير أكثر مما لمصلحة الغني . وهي عناية بالعامة كالزكاة في صدر

الاسلام تؤخذ من الاغنياء وتنفق في الفقراء

والحكومة الانكليزية تعد نفسها وصية على الفقراء من رعاياها فتضع القوانين لمصلحتهم وتجبرهم على اتباعها . أو هي تتولى تنفيذها عليهم — لعلها تتقي اعتصابهم أو اضرابهم . من ذلك قانون صدر في الصيف الماضي ونحن في انكلترا وضعته الحكومة لمنفعة الخدم وصغار المستخدمين اسمه (National Insurance ɛct) في ١٤٠ صفحة كبيرة . مآله ضمان مستقبل كل مستخدم في المملكة الانكليزية سنه بين ١٦ و ٧٠ سنة يقل دخله السنوي عن ١٦٠ جنيهاً . وكل عامل يشتغل بيده لحساب نفسه ولو زاد دخله على ١٦٠ جنيهاً في السنة . فتفرض على كل من هؤلاء أن يختزن من دخله مالا يعينه في شيخوخته أو مرضه — جعلت ذلك اجبارياً لا يرى العامل مفراً منه بوجه من الوجوه . وهو يشمل الممثلين في المراسح وأساتذة المدارس الصغرى والثانوية وكتاب المصارف والمتاجر وخدام المنازل وعمال المعامل وفيهم أصحاب العاهات البدنية وساقة المركبات والنوتية وغيرهم وكل عامل له رئيس يدفع له أجرة

وكيفية ذلك الضمان ان الحكومة طبعت أوراقاً كالسراكي أو الاستمارات في اصطلاحنا تفرقها في العمال . وعلى العامل أن يقدم واحدة منها كل أسبوع وعليها طوابع مختومة يشترك هو ورئيسه والحكومة في دفع قيمتها . وتختلف تلك القيمة باختلاف راتب



بنات انكليزيات يلعبن بالسيف

العامل . فالرجل الذي تزيد أجرته على شلينين ونصف شلين في اليوم يدفع هو أربعة بنسات في الاسبوع ورئيسه يدفع ثلاثة بنسات والحكومة تدفع بنسين . الجملة تسعة بنسات (نحو ثلاثة غروش ونصف) تلصق بقيمتها طوابع على الاستمارة وتختم وتقدم للحكومة كل أسبوع . واذا كان العامل صاحب هذه الاجرة امرأة تعامل مثل معاملة الرجل الا ما تدفعه هي فيكون ثلاثة بنسات بدلا من اربعة ويختلف مقدار المدفوع باختلاف درجة العامل ومقدار أجرته

والحكومة تحفظ للعامل ما يقدمه كل أسبوع وتختزنه لحسابه وقد تستثمره له فيضمن مستقبله رغم ارادته . ومعظم هذا الضمان من رئيسه والحكومة وهي لا تضرها لكن تنفع العامل المسكين . وفي ذلك القانون شروط وأحكام تفصيلية لا محل لها . لكنها بلا شك من أحسن ما استنبطته القرائح لمصلحة العمال وضمان مستقبلهم على نفقة الحكومة وأصحاب الاموال . فضلا عما فيها من المشقة على أصحاب التجارات أو المعامل . فان كل واحد منهم مكاف بالتوقيع على السراكي أو الاستمارات بيده كل اسبوع وقد يكون عنده مئة عامل أو الف

٥ ـ اخلاق الانكليز

١ ـ الثبات والتعويل على الحقيقة

للانكليز أخلاق بارزة واضحة تختلف عما لسواهم من الامم يمكن تلخيصها بكلمتين نعني (١) « انهم يجنحون في أعمالهم وشؤونهم الى الحقيقة المحسوسة دون الظواهر » (٢) « انهم ثابتون في مبادئهم وعاداتهم ومشاريعهم » فاذا عرفت ذلك فيهم هان عليك تعليل اكثر ما يعرض لك من أخلاقهم . والانكليزي هادئ الخلق يندر ان تتغلب عليه الحدة حتى تخرجه عن طور ارادته ولذلك تجدهم يبحثون في أهم المسائل وأحرج المشاكل ويتجادلون ويتناقشون بهدوء وسكينة . ويغلب في أدائهم ان تبنى على العقل اكثر مما على العواطف . ويظهر لك الانكليزي جامداً وقد ترى في نفسك تفوقاً عليه بسرعة الخاطر لكنك عند العمل تجده أثبت منك قدماً وأصبر على التعب وأقدر على المشاريع الكبرى . وترى فيه سكوتاً وطول أناة في موقف يستفزسواه ويهيج غضبه وليس ذلك من بلادة في طبعه وانما هو من قبيل ثباته في أعماله وتعويله على الحقائق فلا يكترث بالصغائر بل يجعل همه الغرض الذي يسعى اليه لا يبالي بما يقف في طريقه من العقبات ولا سيما اذا كانت تلك العقبات أموراً وهمية كالكلام في الصحف ونحوها اذا لم يكن مبنياً على حقائق محسوسة ـ فهو يهمه ان يصل

حماره الى العباسية ولا يلتفت الى شقشقة المكاري في أثناء الطريق

٢ ــ الكبرياء والانانية

ومن الاخلاق المشهورة عن الانكليز انهم متكبرون يترفعون عن مخالطة سواهم من الامم . وهي تهمة لا تخلو من الحقيقة . ان الانكليزي معجب بنفسه يفتخر بدولته وأمته وينفرد عن سائر الامم فلا يزاوجهم أو يختلط بهم الا بما تقتضيه المصلحة التجارية أو السياسية . ولا عجب فاننا في عصر الانجلوسكسون كما كان العرب في ابان دولتهم والرومان قبلهم . ولكل أمة عصر اذا تفوقت فيه على سواها توهمت امتيازها الفطري عليهم بالجبلة الاصلية ــ وهي طبعاً لا تنال ذلك التفوق الا لمواهب فيها تمتاز بها عن سواها

ومما يوجه الى الانكليز من الانتقاد انهم أنانيون يحبون الاستئثار بالمنافع لأنفسهم وهو خلق فطري في الانسان لا يختص بأمة دون أخرى . لكنه يظهر في الانكليزي لانه لا يبالي أن يظهره ويتمسك به . ولا يهمه ما يسميه الآخرون أريحية أو نجدة ويعدونها من أسمى المناقب فهو لا يعرض نفسه للخسارة لمنفعة سواه كما يفعل الفرنساويون مثلا او كما يفعل العرب ويعدونه من مفاخرهم . ولذلك كان العرب اسرع اختلاطاً بالفرنساويين مما بالانكليز

ومن مقتضيات الجنوح الى الحقائق ان الانكليزي صريح في أقواله وأعماله لا يقول غير ما يعتقده ولو ساءك قوله . فيظهر ذلك

منه مظهر الجفاء . ولكنه يعد المجاملة ضرباً من العبث فلا يزال يتجنبك حتى يتعرفك ويثق بك فيمد لك يده ويصافحك ويكون عند ذلك من أخلص الاصدقاء وأظرف الجلساء

٣ ــ التربية الادبية والعقلية

ومن مقتضيات ذلك الخلق ايضاً ما تراه من ثبات الانكليز في أفضل وسائل التربية البدنية والعقلية ولا سيما الرياضة وهم قدوة الامم فيها . وقد الف ديمولان الكاتب الفرنساوي كتابه سر تقدم الانكليز ليحرض قومه على الاقتداء بهم في التربيـة والاخلاق والتعليم وغير ذلك . واختص غوستاف لابون اخلاق الانكليز بالاطراء في كتابه « العوامل الاخلاقيـة في تكوّن الامم » فالانكليزي رأى بعين الحقيقة ان هذا الضرب من التربية مفيد له فاتبعه ووضع له قواعد أساسها الفائدة الحقيقية بلا زخرف ولا تنميق . وزادهم ثباتاً فيها انهم فطروا على احـترام آراء رجال التاريخ واصحاب المواهب منهم والعمل بها بلا جدال او نقد ــ لعله من بقايا خضوعهم للشرفاء في عصر الاقطاع . ولهـذه المنقبة فضل كبير في جمع كلمتهم وتأييد مساعيهم لان الامة اذا عملت برأي عقلائها كانت كلها عقلاء . بخلاف الامم التي يزعم كل من افرادها انه صاحب الرأي الاصوب والنفوذ الاعلى . ويرى الانصياع لرأي سواه صغاراً ومذلة كما هو شأن الامم الضعيفة التي صارت الى الشيخوخة وآذن الزمان بفساد أمورها وانقضائها

٤ ـ الصدق والوفاء

المشهور ان الانكليزي على الاجمال بطيء الخاطر غير مفرط الذكاء . لكنه ناجح على الغالب في اعماله ومشاريعه فما هي علة نجاحه ؟ العلة الحقيقية انهم يعملون بالقواعد التي قرر عقلاؤهم انها وسيلة النجاح وقد رسخت في اذهانهم بالتربيـة للاسباب التي قدمناها . وهي تعلمهم ان التاجر او الصانع يجب ان يعول في اعماله على الحقائق مع المنفعة المتبادلة . فجعلوا معولهم على الصدق والامانة والثبات وهي اهم اسباب نجاحهم في اعمالهم الكبرى والصغرى . وقد اشتهر ذلك عنهم حتى جرى مجرى الامثال . والمشهور بين تجار الارض ان الانكليزي اذا سألته عن سعر بضاعتـه اعطاك آخر سعر بوافقه ولا يفتح باباً للاخذ والرد او المساومة كما تفعل سائر الامم

٥ ـ المحافظة على التقاليد

قد رأيت الامة الانكليزية لا تزال حتى الآن محافظة على الارستوقراطية رغم اعراقها في الدستورية ـ حتى الدستور عندها لا يزال محفوظاً بالتقليد اي انهم لم يدونوا قواعده وشروطه بما يسميه العثمانيون القانون الاساسي او نحوه . وانما يجرون فيـه على التقاليد الماضـية فيحكمون في شؤونه بالقياس على احكام سابقة اصدرها اسلافهم مع مراعاة مقتضيات الاحوال واذا عرضت مسألة لم يسبق الحكم فيها حكموا فيها وعدوا حكمهم سابقة لمن يأتي بعدهم

فالانكليز من اكثر الامم محافظة على التقاليد المتوارثة . وذلك من قبيل الثبات في اخلاقهم . ولهذا السبب كانوا من أشد الناس احتراماً لرجل التاريخ منهم ينصبون لهم التماثيل ويعملون باقوالهم . ولنفس هذا السبب جروا في استعمارهم على احترام تقاليد الامم التي تدخل في سلطانهم او حمايتهم . فلا يتعرضون لهم في شيء من اديانهم او عاداتهم . بل يساعدونهم على القيام بشعائرهم الدينية او الوطنيـة . ولذلك كان الشرقيون اكثر ارتياحاً الى سيادتهم مما الى سواها لولا ترفعهم وبعدهم عن المجاملة

٦ ــ التدين والنظام

ومن قبيل الثبات والمحافظة على التقاليـد انهم متمسكون بعقائدهم الدينية . ورغم تطرف اكثر الامم من جيرانهم وزملائهم في الحرية الدينية حتى جاهروا بمناوأة رجل الكهنوت ومطاردة الجمعيات الدينية فالانكليز ما زالوا متمسكين باهـداب الدين يحافظون على طقوسه وتعاليمه ولا سيما الراحة يوم الاحد فقد ذكرنا كيف يقفلون الحوانيت والمخازن وغيرها في ايام الآحاد والاعياد

ومن هذا القبيل ايضاً خضوعهم للنظام وتقديسه والاذعان له باحترام وافتخار لا يستنكف من ذلك كبيرهم ولا صغيرهم . ولا يرى الملك بأساً ان يعترف بالخطأ بين يدي أصغر رعاياه ولا يعـد ذلك حطة . وانما هو من نتاج جنوحهم الى الحقيقة واحترامهم اياها . وتجد كتبهم المدرسية مشحونة بالحكايات التي تعلم هـذه

المنقبة وأمثالها من الصراحة بالقول والاعتراف بالخطأ . غير القدوة الحسنة التي يستفيدها التلاميذ من أساتذتهم أو والديهم أو كبارهم في هذا السبيل

٧ ـ الشعور بالواجب

ان الشعور بالواجب عام في الممالك الراقية لكنه ظاهر كل الظهور في أخلاق الانكليز . فالانكليزي يعرف ما عليه من حق أدبي او مادي فيؤديه في حينه بلا مطالبة أو استحثاث . يفعل ذلك بهدوء وسكينة . لانه من اكثر الناس عملا وأقلهم كلاماً . فاذا وعدك بزيارة كن على ثقة انه منجز وعده . واذا كلفته بخدمة فمن التأدب عندهم ان لا يؤكد لك نجاحه فيها وانما يقول « اني سأجرب » فاذا قال هذا قائل منهم عدوا قوله وعداً اكيداً . وهكذا اذا عزم أحدهم على تكليف آخر بخدمة أو مطالبته بحق له أو وعد يتوقعه فانه يجعل طلبه بصورة الاستفهام أو الشك فيقول مثلا « ماذا تظن لو فعلت كذا » فيجيبه « أظنني فاعلا كذا » فيعد ذلك وعداً لا بد من قضائه . وهذه التعابير تكون غالباً في الطبقة الراقية من القوم

٨ ـ المرأة الانكليزية

المرأة في انكلترا تشبه سائر نساء اوربا في اكثر الاحوال الاجتماعية والادبية لكنها تفرق عنهن بما يقتضيه الخلق الانكليزي او التربية الانكليزية من بعض الوجوه . فهي أميل الى الحقائق في

آدابها وعاداتها وأزيائها . ويمتاز الزي الانكليزي غالباً بالبساطة لانهم يلاحظون فيه المنفعة الحقيقية ـ شأنهم في كل شيء . واذا رأيت انكليزية بثوب مزخرف فانها تقلد به غير الانكليز

ومن هذا القبيل انصرافها الى الرياضة البدنيـة بالالعاب المشهورة عندهم حتى لعب السيف وركوب الخيل . ولذلك كانت الانكليزية صحيحة البنيـة نشيطة الحركة ممشوقة القوام مشرقة الوجه قوية الارادة . وقد أخذت تتشبه بالرجال وتجاريهم في أعمالهم . وتطرفت طائفة من المتهوسات حتى طلبن حق التصويت في مجلس النواب وبالغن في ذلك وخرجن به عن طورهن الذي خلقن له واستخدمن العنف في مطالبهن . ولا نظنهن الا راجعـات الى الصواب . وحكمنا على المرأة الانكليزية من هذا الوجه مثل حكمنا على المرأة الفرنساوية عند كلامنا عن اخلاق الفرنساويين :

« ان المرأة خلقت لتهتم بشؤون بيتها وعائلتها فاذا تحولت عن ذلك الى اعمال الرجال خرجت عن طبيعتها »

على ان المرأة الانكليزية في اصل فطرتها كثيرة الخضوع لرجلها تستهلك في سبيل راحته وراحة سائر العائلة ولو مهما كلفها ذلك . لـكنها وهي عذراء تتمتع بما يتمتع به الشاب من الحرية الشخصية في ذهابها وايابها وقيامها وقعودها . فاذا تزوجت انقطعت الى بيتها ولم يعد يهمها سواه مع احترام زوجها ومعرفة حقه . فلعل المطالبات بحقوق الرجال من غير المتزوجات

٩ ـ طريقتهم في الاستعمار

وترى الخلق الانكليزي الاساسي ـ نعني التعويل على الحقيقة مع الثبات ـ ظاهراً في طرقهم السياسية كالاستعمار مثلا فان لهم فيه طريقة تخالف طرق المستعمرين . فهم ينظرون من وراء الاستعمار الى الفائدة الحقيقية لا يهمهم زخرف السيادة وأبهة الدولة والتفاخر بسعة السلطة بقدر ما تهمهم المصلحة الحقيقية في الاستعمار . وقد وجدوا بعين العقل ان المصلحة الحقيقية من الفتح او الاحتلال انما هي المرافق الاقتصادية أو المالية فيوجهون سعيهم اليها . ولا يهمهم بعدها أن تكون لهم سيادة ان لم يكن الغرض منها المنفعة الاقتصادية . ومن ثباتهم وطول أناتهم صبرهم على استثمار مطامعهم الاستعمارية أعواماً متطاولة ترسخ في أثنائها أقدامهم أو تسنح لهم فرص يغتنمونها ويؤيدون بها حقوقهم

ولهذا السبب رأيتهم لا يتعجلون وضع الحماية أو اعلان السيادة بل بعكس ذلك يتساهلون مع مستعمراتهم في الاستقلال الاداري حتى لا يبقى فرق يذكر بينه وبين الاستقلال الحقيقي . ويهمهم من البلد الداخل في حيازتهم أو تحت نفوذهم ان تكون مصالحهم المادية رائجة فيه ـ ولا يبالون ان يجيئهم ذلك بطريق الاحتلال او الحماية أو الاستعمار . وعلى هذا المبدأ حلوا قيود اوستراليا وكندا والترانسفال وغيرها . ولا نرى مانعاً من أن يفعلوا ذلك في الهند وغيرها اذا تحققوا ضمان مصالحهم الاقتصادية وبقاء علائقهم الودية

وأن تكون لهم الافضلية من الاعتبارات الاخرى

فالسطوة التي بلغت اليها الامة الانكليزية في هذا العصر تتوقف على أخلاقهم اكثر مما على ذكائهم . ان الاخلاق التي ذكرنا أمثلة منها جعلت اربعين مليون انكليزي يحكمون نحو ٣٥٠ مليون نفس من أمم شتى في القارات الخمس . وفيهم القوقاسي والمغولي والهندي والزنجي وغيرهم من طبقات الناس يتكلمون عشرات من اللغات المختلفة . ان الانكليز استطاعوا ذلك بأخلاقهم المتينة وأساسها الثبات والتعويل على الحقيقة . والا فان بين الامم الداخلة في سلطانهم شعوباً لا يقلون عنهم ذكاء ويفوقونهم في كثير من المواهب العقلية . وانما تنقصهم الاخلاق اللازمة للتغلب أو الاستقلال

١٠ ـ المدنية الحديثة ومدنية العرب

فلانكليز من أوضح الامثلة للاخلاق الملائمة لروح هذه المدنية ـ وان كانت لا تلائم المدنيات الاخرى . اذ لكل مدنية قواعد تبنى عليها دعائمها ولا تصلح الا بها . فمدنية العرب أساسها مناقب العرب في صدر الاسلام أهمها الاريحية والنجدة والجوار والوفاء والحلم وسعة الصدر وكرم الخلق ونحوها مما لا يلائم المدنية الحديثة . كان الخليفة أو الامير يعفو أحياناً عن القاتل لاعتبار قام بنفسه من قول سمعه أو فكر خطر له ويعد ذلك أريحية . وكان القوم يتواصون بالعفو عند المقدرة والاخذ بأسباب الكرم يقيمون

بيوت الضيافة ينزل فيها الاضياف أشهراً لا يسألهم أحد من هم . وكان لهم ضرب من الارتزاق بالسخاء من الخليفة فمن حوله واتباعهم وحواشيهم وأعوانهم يقيم في بيت الامير أو العامل عشرات أو مئات من الناس يأكلون ويشربون ويلبسون ولا عمل لهم وقس على ذلك مما فصلناه في تاريخ التمدن الاسلامي . فهذه المناقب بعيدة عن مقتضيات المدنية الحديثة التي أساسها مبادلة الحقوق والواجبات لا حلم ولا عفو ولا أريحية ولا نجدة . وانما ينال المرء من الرزق أو المنصب على قدر سعيه ومواهبه بمقتضى القواعد الاقتصادية والاعتبارات السياسية . فلا يرتقي في هذا السلك غير العارف باحكام السياسة الذي ينظر الى حقائق الاشياء بالنظر الى مصلحة الامة ويحافظ على العدالة وشروطها لا ينفق غرشاً الا في طريقه . وغير ذلك من المناقب الشائعة في أوربا لهذا العهد — ولكل دولة أيام ورجال

٦ — آثارها

لانكلترا آثار معنوية في نفوس العقلاء مرجعها الى الاعجاب باخلاقهم وتربيتهم ونظام عائلاتهم — حتى أعداؤهم فانهم يعترفون لهم بسمو الاخلاق وثباتها ويحرضون أقوامهم على تحديها

أما الآثار البنائية فانها كثيرة في انكلترا ولا سيما في لندن . وقد ذكرنا شيئاً منها في كلامنا عن هذه المدينة وعددنا ما فيها من

الابنية والشوارع وغيرها . ولا يستطيع المار في شوارعها وساحاتها غير الاعجاب بما يراه منصوباً هناك من التماثيل الفخيمة لمشاهير الرجال فان الانكليز كثيرو الاحترام لاسلافهم يقيمون لهـا التماثيل كما يقيمونها للقديسين . وكما يعجب الفرنساويين ببونابرت وينصبون تماثيله في شوارعهم وحدائقهم وساحاتهم وقصورهم فالانكليز يفعلون نحو ذلك بتماثيل ولنتن ونلسن ونحوهما . وناهيك بالقصور الكبرى والمعابد الفخيمة فانها كثيرة في لندن فنكتفي بالاشارة الى أشهرها مما وفقنا لزيارته في هذه الرحلة فنقول :

١ كنيسة القديس بولس

انها قائمة في منتصف المدينة وهي أفخم أبنيتها وأعلاها ومن أقدمها عهداً . لم يتفق المؤرخون على أصل بنائها ولكنهم متفقون على انه كان في مكانها معبد من زمن الرومانيين ثم خرب وأقاموا مكانه كنيسة سنة ٦١٠ م واحترقت سنة ٩٦١ فاعيد بناؤها وتوالى عليها الخراب والترميم مراراً حتى جددت كلها في أواخر القرن السابع عشر على يد مهندس شهير اسمه خريستوفور رين بدأوا ببنائها سنة١٦٧٥ وتمت سنة١٧١٠ وانفق في سبيل ذلك ٨٥٠٠٠٠ جنيه أخذت من الاهلين بضريبة وضعتها الحكومة على الفحم الوارد الى لندن . وكان رين هذا يستولى في أثناء هذه المدة على راتب سنوي مقداره ٢٠٠ جنيه في السنة

بنيت هـذه الكنيسة على مثال كنيسة القديس بطرس في

رومية لكنها أصغر منها . ومع ذلك فهي أكبر كنائس العالم بعد كنائس رومية وميلان واشبيلية وفلورنسا . شكلها كالصليب الروماني طولها ٥٠٠ قدم وعرضها ١١٨ قدماً وعلو قبتها ٣٦٤قدماً. قطر قبتها مئة قدم وقدمان . وقطر قبة كنيسة القديس بطرس في رومية ١٣٩ قدماً . ويزيد أهميتها في نظر الزائرين ما على جدرانها من النقوش والصور وما أقاموه في جوانبها من تماثيل عظماء الانكليز وأكثر من كبار القواد . فهي بهذا الاعتبار معرض عظمة انكلترا وانما يفوقها بذلك دير وست منستر الآتي ذكره

مدخلها الاكبر من جهة الغرب . وهي قائمة في الداخل على ركائز ضخمة مربعة الجوانب تشبه ركائز جامع السلطان احمد في الاستانة وتشبهها ايضاً بالشرفة المستديرة المحيطة باعلى تلك الركائز . يتوهم الداخل لاول وهلة انها كنيسة كاثوليكية لكثرة ما يراه فيها من الصور لكنه لا يلبث ان يرى معظم تلك الصور تمثل مشاهير الرجل . لا يستطيع الداخل اليها الا التهيب مما يشاهده من فخامة البناء وسعة المكان وما نصب في جوانبه من التماثيل الرخامية والبرونزية . فيحسب نفسه في ساحة الحرب او في ساعة الدينونة وقد اجتمع نخبة الرجل ليؤدوا حساباً عما فعلوه او ليتفاخروا في من كان أشدهم بطشاً واكثرهم فضلا في تعزيز العلم البريطاني وفي الجناح الايسر من صحن الكنيسة تماثيل جماعة يعرفهم والسودان مثل الجنرال القراء وكان لهم دخل في شؤون مصر

ستيوارت قائد الفرقة التي تعجلت الذهاب الى الخرطوم لانقاذ غوردون سنة ١٨٨٤ وكنا في جملتها فاصيب قائدها ستيوارت برصاصة في بطنه في معركة انتشبت بيننا وبين الدراويش قرب المتمة . سقط ونحن نراه ولا ننسى تلك الساعة الرهيبة لاننا كنا في اشد ساعات الخطر . وتمثال الجنرال غوردون وقد قتل في الخرطوم قبل وصول الحملة بيومين . وتمثال دوق ولنتن صاحب معركة وترلو وتماثيل الجنرال بكتن والجنرال بونسي قتلا في وترلو . والاميرال نابيه قائد الاسطول الانكليزي في البلطيك سنة ١٨٥٤ وهناك طائفة من الادباء وأربات الاقلام بينهم رينولدس المُصور وباتريك نابيه وهلاند المؤرخان

وقس على ذلك التماثيل العديدة في الجناح الايمن والموقف الاخرى يعرف القراء من اصحابها الاميرال نلسن الذي أغرق الاسطول في ابي قير سنة ١٧٩٨ واشتهر بمواقع رفع فيها شأن الانكليز في كونهاغن وترافلغار وغيرهما . وقد نقشت اسماء تلك المواقع على قاعدة تمثاله. وقد خسر ذراعه اليمنى في واقعة قادس فجعلوه في التمثال متشحاً برداء يغطي تلك الذراع . ومنهم الجنرال ابركرومبي الذي قتل في أبي قير سنة ١٨٠١ والجنرال مور الذي قتل في كرونا باسبانيا . والاميرال هو الذي انقذ جبل طارق سنة ١٧٨٢ وفي بعض الحنايا تذكار المقتولين في حرب القرم وحوله الاعلام التي كانت لهم هناك .

ومن المشاهد الهامة في هذه الكنيسة قبتها لما تشرف عليه من الابنية البعيدة فقد صعدنا الى قمتها بسلم درجاته ستمائة وعشرون درجة فاشرفنا على لندن كلها كما أشرفنا على باريس من قمة برج ايفل . أما القبة فلها شأن خاص شاهدنا مثله وراء محراب كنيسة اريني بالاستانة . نعني تفخيم الصوت فان حول قاعدة هذه القبة من الداخل شرفة مستديرة قطرها نيف ومئة قدم ومحيطها نحو ٣٢٠ قدماً . يشرف المار فيها على صحن الكنيسة وتسمى « قاعة التهامس » دخلناها من باب في بعض جوانبها فرأينا شيخاً يهمس في الحائط بصوت يكاد لا يسمعه الواقف بجانبه . فاومأ الينا أن نذهب الى مقعد في الجانب الآخر من تلك الشرفة . فمشينا ونحن نسمع الصوت يرتفع كلما بعدنا عن ذلك الشيخ . فلما وصلنا الى الطرف الآخر سمعناه كالخطيب يتلو علينا خطاباً في تاريخ هذا البناء

وتحت أرض الكنيسة سراديب مرصفة بالفسيفساء فيها تماثيل وأضرحة للمشاهير أيضاً . منها ضريح الدوق ولنتن من الرخام السماقي قائم على قاعدة من الغرانيت وحوله الاعلام التي اكتسبها من اسبانيا والبورتغال وفرنسا . وبجانبه المركبة التي حملت جثته . وضريح بكتن زميله في وترلو . وفي مكان آخر يقابل منتصف القبة ضريح نلسن فيه تابوت مصنوع من خشب السارية الوسطى من سواري الدارعة الفرنساوية (لوريان) التي أحرقها

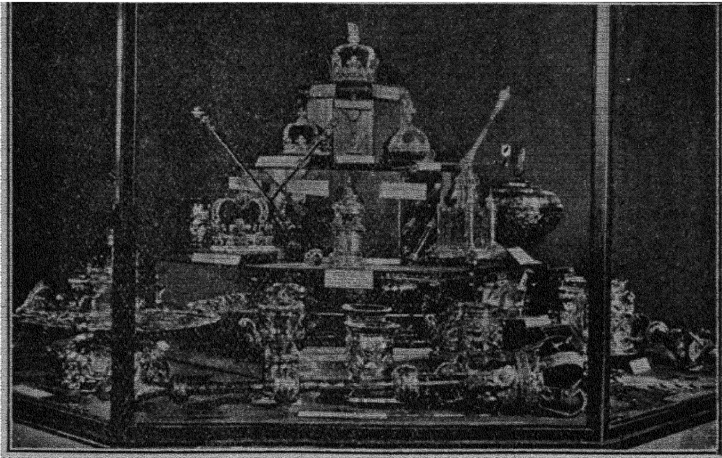
أسطوله في أبي قير سـنة ١٧٩٨ وبجانبه ضريح رفيقه كولنوود وضريحان لنابيه ونورتسك . وتماثيل جماعات من رجال الادب والتاريخ بينهم السير وليم هورد رسل أعظم مكاتب حربي في القرم . وأضرحة لنساء شهيرات في العلم وغيره

٢ ـ قصر جيلد هول

اشتهر هذا القصر بقاعته التي تلقى فيها الخطب العموميـه . وفيها خطب روزفلت منذ بضع سنين وخطابه المشهور الذي ذكر فيـه مصر وسياسة انكلترا فيها . يمر الزائر من كنيسة القديس بولس الى جيلد هول بشوارع هي اكثر شوارع لندن ازدحاماً ـ في جهة اسمها شيبسايد يساوي متر الارض فيها ٢٥٠ جنيهاً

بني هذا القصر للمرة الاولى في أوائل القرن الخامس عشر مقراً لقضاة ومجالس البلديه ثم تخرب وأعيد بناؤه وأنشئت فيـه القاعة المذكورة وطولها ١٥٢ قدماً وعرضها ٥٠ وعلوها ٨٩ قدماً . تجتمع فيـه المجالس البلدية للانتخابات ونحوها وتتلى فيها الخطب العامة . وفيها حوكم جماعة من المجرمين العظماء مثل ارل سـيري واللادي جان غراي وغيرهما . وفيها تماثيل مشاهير الانكليز ولا سيما ولنتن ونلسن وشتام وبت ومور . وفي قاعة أخرى تماثيل أخرى في جملتها تمثالان خشبيان غريبا الشكل يعرفان بياجوج وماجوج ولم نعلم سبب هذه التسمية

وفي جيلد هول مكتبة فيها ١٤٣٠٠٠ مجلد معروضة للناس .



مجوهرات العرش الانكليزي

وفيها متحف صناعي للساعات وغيرها من المصنوعات الدقيقة — وخرائط كبيرة وقاعة صور فيها صور تاريخية منها صورة معركة جبل طارق بين الانكليز والاسبان سنة ١٧٨٢ وصور كثيرين من الملوك وصورة يوبيل الملكة فكتوريا الماسي سنة ١٨٩٧ بالمركبة التي كان يجرها ثمانية افراس . وتحت الارض سراديب مثل سراديب كنيسة القديس بولس فيها قبور ونواويس قديمة

٢ — بنك انكلترا

نحن الآن على مقربة من بنك انكلترا الشهير فلا ينبغي لنا ان نمرّ به سكوتاً . بني سنة ١٧٣٤ واعيد بناؤه كما هو الآن سنة ١٨٢٧ ليس في ظاهره نافذة لكنهم يضيئونه من الداخل مبالغة في الاحتفاظ به . اما البنك نفسه اي العمل المالي المعروف بهذا الاسم فقد أنشيء سنة ١٦٩٧ وظل هو البنك الوحيد في لندن الى سنة ١٨٣٤ فانشئت بنوك اخرى . لكنه لا يزال اعظمها جميعاً ويمتاز عنها كلها بان الحكومة اذنت له باصدار الاوراق المالية (بنك نوط) كان رأس ماله الاصلي ١٢٠٠٠٠٠ جنيه ثم تضاعف مراراً . عدد عماله الف عامل ولا يخلو من ٢٠٠٠٠٠٠٠ جنيه ذهب مختزنة في سراديبه المتينة و ٢٥٠٠٠٠٠٠ جنيه عملة ورق بين ايدي الناس . وهو ينوب عن الحكومة الانكليزية في ما يتعلق بالديون التي عليها وقيمتها ٦٧٢٠٠٠٠٠٠ جنيه بين قبض ودفع وترصيد

وفي البنك مطبعة تطبع اوراقه (البنك نوط) يصدر منها ٥٠ ... قطعة كل يوم من فئة خمسة جنيهات الى الف جنيه . ويطبع فيها ايضاً البنك نوط الهندي. وآلاتها بغاية الاتقان وطريقة طبعها تستدعي الاعجاب . ومن عادات هذا البنك ان يتلف كل ما يرجع اليه من اوراقه ولا يدفع للناس الا اوراقاً جديدة خارجة من تحت يد الطابع ـ لكنه لا يتلف الاوراق المرتجعة حال استلامها بل يحفظها خمس سنوات في خزائن من حديد لئلا يقتضي الامر مراجعة شيء منها لشهادة قضائية او نحوها ثم تحرق . ويبلغ عدد ما يجمع عندهم منها في السنوات الخمس ٨٠٠٠٠٠٠٠ ورقة وزنها ٩٠ طناً وقيمتها المالية ١٧٥٠٠٠٠٠٠٠ جنيه . واذا فرشت الواحدة بجانب الاخرى في خط واحد تألف منها درج طوله ١٣٠٠٠ ميل . وفي البنك آلة لوزن الجنيهات الذهب وفرزها تزن ٣٣ جنيهاً في الدقيقة فما كان منها ناقصاً لفظته خارجاً . وفي البنك مخزن لحفظ المجوهرات . ويحرس البنك شرذمة من الجند ليلا ونهاراً

٤ ـ برج لندن

واقع على ضفة التيمس وهو من أقدم أبنية لندن وأشهرها . كان معقلاً للملوك ثم جعلوه سجناً للمجرمين العظماء من الملوك او القواد او الامراء . حوله خندق عميق يحيط به ردم سنة ١٨٤٣ وجعلت الحكومة برج لندن الآن ثكنة للجند . ورممت جدرانه

ليبقى حصناً . شكله مربع غير منتظم مساحة أرضه ١٣ فداناً عليها عدة ابنية يحيط بها سور مزدوج عليه الابراج . يقال في تاريخ بنائه انه يرجع الى وليم الظافر . اقدم قصوره الآن « البرج الابيض » بني في القرن الحادي عشر . وهو نخيم وله ذكر رهيب في التاريخ لكثرة من سجن او قتل فيه من العظماء . اشهر ضحاياه السير توماس مور قتل سنة ١٥٣٥ وحنة بولين قتلت سنة ١٥٣٦ وتوماس كرومويل قتل سنة ١٥٤٠ ومرغريت بول سنة ١٥٤١ والملكة كاترينة هورد سنة ١٥٤٢ والاميرال سيمور سنة ١٥٤٩ واللورد سمرست سنة ١٥٥٣ واللادي جان غراي وزوجها سنة ١٥٥٤ والسير جون اليوت مات فيه سنة ١٦٣٢ وغيرهم كثيرون . وممن سجنوا ولم يقتلوا جون بليول ملك اسكتلاندا سنة ١٢٩٦ ووليم ولسن الاسكتلاندي سنة ١٣٥٠ وداود بروس ملك اسكتلاندا سنة ١٣٤٧ وجون ملك فرنسا أخذ أسيراً في بوتيه سنة ١٣٥٦ ودوق أورليان والد لويس الثاني عشر ملك فرنسا سنة ١٤١٥ والملك هنري السادس وغيرهم . وكان في البرج مأسدة نقلت الى مسرح الحيوانات العام

وفي هذا البرج تحف تاريخية لا يوجد مثلها في سواه منها الاسلحة والالبسة والجوهرات أهمها المصوغات الملوكية سيأتي ذكرها . واول ما يستلفت نظر الشرقي عند دخوله الباب الخارجي للبرج مدفع عثماني أهداه السلطان عبد المجيد لانكلترا سنة ١٨٥٧

واذا دخل البرج فاهم ما يشاهده هناك المصوغات الملوكية الانكليزية . وقد ذكرنا المصوغات الملوكية الفرنساوية التي شاهدناها في متحف اللوفر لكن هذه أنخم واثمن

ان هذه المصوغات او المجوهرات معروضة في غرفة صغيرة في وسطها دكة مثمنة الاضلاع يكاد يقرب شكلها من الاستدارة . عليها رفوف مرتبة بعضها فوق بعض بشكل هرمي وضعوا تلك المصوغات عليها بحيث يراها المشاهدون . لكنهم أحاطوا تلك الدكة بسياج من شبك الحديد وألواح من الزجاج . وبين الدكة والحائط ممر يكاد لا يتسع لمرور اثنين والحرس وقوف لمراقبة المتفرجين . والمصوغات المشار اليها اكثر تيجان مرصعة بالحجارة الكريمة بعضها قديم والبعض الآخر حديث وهي : (١) تاج القديس ادورد صنع لتتويج شارل الثاني . سرقه الكولونيل بلود سنة ١٦٧١ في جماعة من رفاقه بعد أن قتلوا الحارس لكنهم لم يفوزوا بغنيمتهم (٢) تاج الملك ادورد السابع صنع في الاصل للملكة فيكتوريا سنة ١٨٣٨ ثم جدد للملك ادورد سنة ١٩٠٢ وهو من المصوغات الحديثة . مرصع بجواهر لا يقل عددها عن ٢٨١٨ ماسة و٣٠٠ لؤلؤة وجواهر اخرى . في مقدمه ياقوتة يقال انها كانت للامير الاسود اعطاه ايها دون بادرو صاحب قسطيلة سنة ١٣٦٧ وقد وضعها هنري الخامس على خوذته في معركة اجنكورت . تحتها ماسة كبيرة تعرف بالماسة الكولينية قدمتها

حكومة الترنسفال الى الملك ادورد سنة ١٩٠٧ وهي تنسب الى ماسة اسمها كولينا سيأتي ذكرها وفي مؤخر التاج حجر صغير يقال انه كان لادورد المعترف (٣) تاج ولي العهد من الذهب الخالص غير مرصع (٤) تاج زوج الملكة ذهب مرصع (٥) تاج الملكة ذهب مرصع (٥) تاج الملكة هو طوق من الذهب مغشي بالماس واللؤلؤ وقد صنع كلاهما للملكة ماريا ديست زوجة جيمس الثاني (٦) صولجان الملك ادوارد من الذهب الخالص طوله أربعة أقدام ونصف ووزنه ٩٠ رطلا مصرياً . قبضته ضخمة كالتاج يقال أن فيها قطعة من ذخيرة عود الصليب (٧) الصولجان الملوكي طوله قدمان وتسعة قراريط عليه صليب مرصع بالحجارة الكريمة (٨) صولجان الحمامة او عصا المساواة على رأسها تمثال حمامة باسطة جناحيها (٩) صولجان آخر فيه صليب مرصع (١٠) الصولجان العاجي للملكة ماريا ديست فوقه حمامة من العقيق الابيض (١١) صولجان الملكة ماري زوجة ولیم الثالث (١٢) مثال ماسة «كوه نور» الشهيرة وهي من اكبر حجارة الماس المعروفة . وزنها ١٦٢ قيراطاً والماسة الاصلية الآن في قصر وندسر وكانت قبلا في حوزة ملك لاهور ووصلت الى ايدي الانكليز سنة ١٨٤٩ لما فتحوا البنجاب . وشاهدنا مصوغات اخرى ثمينة منها أساور التتويج والمهماز الملوكي وابريق زيت التتويج بشكل النسر والخاتم والملعقة والمملحة وغير ذلك . ويقدرون قيمة هذه المصوغات بمبلغ

... ٣٠٠٠٠٠٠ جنيه وفي تلك الغرفة خزانة (فترينة) فيها امثلة من الاوسمة الكبرى ومثال للماسة الترنسفالية المسماة كولينا . اما كولينا الاصلية فقد قسموها الى الماسة التي تقدم ذكرها في مقدم تاج الملك ادوود وقسموا الباقي الى ماسات وضعوها على الصولجان

معرض الاسلحة

وفي برج لندن معرض للاسلحة والادراع فيه امثلة من المدافع والبنادق والسيوف والحراب والفؤوس لبعضها ذكر تاريخي . منها سيف جلاد ملك أود واسلحة هندية الاصل او عربية . ومنها المدفع الذي غنمه الفرنساويون من مالطة سنه ١٧٩٨ وحملوه على الدراعة سنسيبل الفرنساوية فاسترجعه الانكليز وهم على الباخرة سيهورس بقيادة القبطان فوت . وهناك أمثلة من آلات العذاب كالجامعة التي تقبض على الابهامين معاً والفلق الذي يقبض على القدمين والاطواق بالاحاطة بالاعناق . وبينها فاس لقطع العنق صنع سنة ١٦٧٩ وبجانبه البلاطة التي يسند العنق اليها عند القطع . ومن الادوات الحربية التاريخية ملاءة التف بها الجنرال وولف لما جرح سنة ١٧٥٩ وعليها مات . وثوب الدوق والمركبة المدفعية التي حملوا عليها جثة ادورد السابع

وفي قاعة أسلحة الفرسان كثير من الادراع والرماح والخوذ والسهام على اختلاف الاعصر من القرن الرابع عشر فما بعده وتماثيل افراس عليها تماثيل فرسان بالالبسة الرسمية والادراع الثمينة

احدها يمثل هنري الثامن على جواده وعليه درعه . وآخر يمثل جيمس الثاني سنة ١٦٨٨ وآخر يمثل شارل الاول وعليه درع مغشاة بالذهب . وهناك غرفة لها ذكر تاريخي لانها كانت قاعة المجلس وفيها تنازل ريتشارد الثاني عن الملك وغرف اخرى كانت سجوناً استخدموها الآن لحفظ السجلات وغيرها

وفي ساحة البرج بقعة فيها نحاسة مربعة نقش عليها ما معناه « انه في هذا المكان قطع رأس الملكة حنة » . وقد شاهدنا الابراج والمخادع التي كانوا يستخدمونها للسجن ويأتون فيها ضروب الظلم والفتك بلا حساب ولا تقدير . وناهيك بفنون التعذيب مما تقشعر له الابدان — ان من يطلع على ذلك ويرى ما عليه الامة الانكليزية اليوم من اسباب المدنية ومحاربة الجهل ومطاردة الظلم يعلم ان الامة لا بدَّ لها من المرور في أطوار من جملتها هذا الدور من الهمجية . وان ذلك ليس خاصاً ببلد دون آخر ولا امة دون اخرى

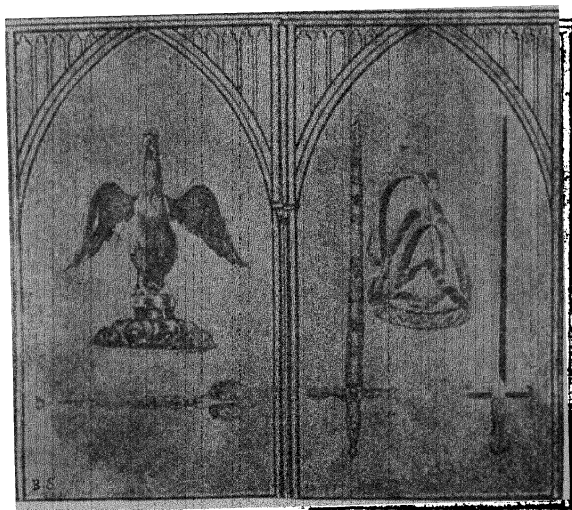
دار الضرب

وفي هذا البرج بناء خاص لضرب النقود بني سنة ١٨١١ ثم توسع سنة ١٨٨٢ وقد اتقنت فيه صناعة الضرب والآته . ومنها ما يصنع ١٢٠ قطعة من النقود في الدقيقة وقد بلغ ما ضرب سنة ١٩٠٩ اما قيمته ١٥٠٠٠٠٠٠ جنيه منها ١١٨٠٠٠٠٠ قطعة فئة جنيه و ٤٠٠٠٠٠٠ نصف جنيه و ٣٨١٦٠٠٠ نصف ريال و ٣٩٩٣٠٠٠ فلورين و ٦٩٠٠٠٠٠ شلين و ٧٠٢٨٠٠٠ نصف

شلين و ٦٠٠٠٠٠ ٥ ربع شلين و ٢١٢٥٦٠٠٠ بنس فقس عليه

٥ ـ قصر وستمنستر

هو قصر فخيم واقع على ضفة التيمس ينعقد فيه البرلمان الانكليزي . وهو ينعقد في قاعتين فخيمتين منه احداهما لمجلس الاعيان والاخرى لمجلس العموم . وقبل الوصول الى قاعات البرلمان يمر الزائر بقاعات عديدة . الاولى جدرانها مغشاة بالصور في جملتها صورتان احداهما تمثل معركة وترلو وقد فاز فيها الانكليز . والاخرى تمثل واقعة ترافلغار وقد مات فيها نلسن . طول الواحدة منهما نحو ١٥ متراً . يتصل منها الى قاعة اخرى جدرانها من الخشب الملون عليه صور اشهر ملوك انكلترا . ومنها دخلنا قاعة الاعيان في غير وقت الاجتماع . طولها ٩٠ قدماً وعرضها ٤٥ وعلوها ٤٥ قدماً ارضها مغطاة بصفوف من المقاعد مغشاة بالجلد الاحمر تسع نحو ٦٥٠ شخصاً . وللقاعة ١٢ نافذة زجاجها مزين بصور ملوك انكلترا وملكاتها منذ الفتح . وتضاء القاعة ليلا بالكهربائية فتزداد جمالا وعلى الجدران بين النوافذ تماثيل للبارونية الذين اخذوا الدستور من الملك جون . غير ما على الجدران من النقوش البديعة بينها الصور الجميلة للملوك وبعض المواقف الدينية . وفي صدر القاعة عرش يجلس الملك يصعد اليه ببضع درجات والى يمينه مجلس ولي العهد . وخرجنا من طرف القاعة الاخر الى غرفة فيها تعاليق ومواقف للبرانيط والاردية ـ لكل من الاعضاء تعليقة عليها اسمه . ومن



المهمازان والسيفان والابريق

هناك انتهينا الى دهليز جدرانه مزدانه بالصور التاريخية . ومنها الى قاعة متوسطة الحجم فدهليز آخر اتصلنا منه الى قاعة مجلس العموم . طولها ٧٥ قدماً وعرضها ٤٥ وعلوها ٤١ قدماً . وهي تشبه قاعة مجلس العموم . بشكلها لكنها اقل فخامة وابسط رياشاً . عليها مقاعد مكسوة بجلد ازرق مخضر لا يسع اكثر من ٤٧٦ شخصاً مع ان عدد اعضاء هذا المجلس نحو ٦٧٠ وقد ترتبت المقاعد صفوفاً . وكرسي الرئيس في صدر القاعة عند طرفها الشمالي والى يمينه مقاعد لنواب الحكومة كالوزراء ونحوهم والى يساره رؤساء حزب المعارضين . وبين يدي الرئيس طاولة يجلس اليها الكاتب. ويجلس المخبرون ومكاتبو الجرائد على مقاعد فوق مجلس الرئيس . وفوقها مقاعد للسيدات . وتجاه مجلس الرئيس في الطرف الآخر من القاعة مقاعد للزائرين

٦ — دير وستمنستر

لهذا الدير شأن عظيم عند الانكليز لانه مجتمع مفاخرهم ومدافن عظمائهم او تماثيلهم . يحوي من تلك المفاخر اكثر مما يحويه كل مكان سواه ولا يدفن فيه او ينصب تمثاله في أرضه الا الممتازون بالشرف والفخر في خدمة الامة والوطن . والاذن في دفن ميت هناك أعظم شرف تقدر الامة ان تمنحه لذلك الميت

والدير بناء قديم ولبنائه تاريخ طويل شكله يشبه من الداخل شكل كنيسة القديس بولس طوله ٥١٣ قدماً واعرض نقطة فيه

٢٠٠ قدم وعلوه مئة قدم وقدمان وعلو برجه ٢٢٥ قدماً . دخلناه من بابه الشمالي ولم نكد نتوسط المكان ونلتفت ذات اليمين وذات الشمال حتى وقع بصرنا على ما هنالك من قبور العظماء وتماثيل الكبراء وقد ساد السكوت وتجلت هيبة الموت فغلب علينا التهيب وخيل لنا اننا نسمع من كل قبر نداءً ونرى في كل تمثال خطيباً . لا غرو ونحن بين بقايا أعظم رجال انكلترا وفيهم القائد الباسل والسياسي المحنك والشاعر المفلق والخطيب المفوه والعالم الحكيم والمخترع العظيم . وقد تكاتفوا جميعاً في خدمة امتهم فنهضوا بها الى اسمى منازل الدول . فاخذتنا العبرة وتذكرنا حال دولتنا في العالم السياسي فتشاغلنا عن تلك الهواجس بما بين أيدينا من مفاخر الآخرين . اذ لا فائدة من تلك الذكرى وان عرفنا الداء اذ لا سبيل لنا الى الدواء . وتجولنا الى انحاء الدير نتفقد المدافن والتماثيل ونقرأ أسماء أصحابها فاذا فيهم نخبة الساسة والعلماء والشعراء والخطباء وغيرهم يعدون بالمئات ويضيق هذا المقام عن تعدادهم فنذكر أمثلة من ذلك في مجاميع حسب الاماكن : منهم وليم بت السياسي المتوفى سنة ١٧٧٨ وجون هولس دوق نيوكسل (١٧١١) وجورج كانين السياسي (١٨٢٧) والجنرال مالكولم واللورد بالمرستون واللورد منسفليد والاميرال ورين والسير روبرت بيل السياسي (١٨٥٠) وفي مجموع آخر جورج غوردون ارل ايردين والسير توماس رافلس (١٨٢٦) وتشارلس جيمس فوكس وكبتن مونتاغيو وغيرهم .

وهناك زاوية خاصة بالشعراء والادباء فيها تماثيل جورج غروت الشاعر وماكولي المؤرخ ودوق ارغيل الشهير وشكسبير امام شعرائهم . وروبرت برنس وتنسن وشارلس دكنس وجون ملتن ولونفلو وغيرهم من الشعراء والادباء . وهناك زاوية للشرفاء واخرى للاساقفة وغيرهم ممن يستغرق تعداد اسمائهم فقط عشرات من الصفحات فكيف بذكر مناقبهم

٧ – متاحفها

١ ـ المتحف البريطاني

هو اعظم متاحف انكلترا ومن اعظم متاحف العالم . يشتمل على التحف والآثار مثل اللوفر بباريس ويمتاز عنه باشتماله على مكتبة نفيسة يندر مثلها بين مكاتب اوربا . وبناء المتحف فسيح تأسس سنة ١٧٠٠ ونما ببنائه ومحتوياته حتى بلغ ما هو عليه الان فنذكر تحفه التاريخية اولا ثم نأتي الى مكتبته

دار التحف

هي عبارة عن المنحوتات والمصنوعات والمنقوشات من الآثار التاريخية والفنون الجميلة والتحف والذخائر وغير ذلك ويصح ان يقال في وضعها انها جمعت آثار الانسان من اول عهد العمران الى الان في القارات الخمس.وفيها من كل شيء احسنه مرتبة على الدول والامم في قاعات لآثار الاشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين

والحثيين والفرس واليونان والرومان والهند والصين واليابان والعرب في الجاهلية والاسلام وامم اوربا الحية وآثارها وامثلة من مصنوعات الامم المتوحشة وآثارها ومظاهر عاداتها في افريقيا واوستراليا واميركا وجزائر المحيط . ومصنوعات الامم المتمدنة من الفنون الجميلة والتصوير والنقش والحفر وفيها امثلة تدهش الناظر . ولكن هذا القسم من التحف في اللوفر أحسن منه في المتحف البريطاني وأوسع . وفي هذا المتحف مجموعة نفيسة جداً من النقود قديمها وحديثها ومجموعة للاوسمة وطوابع البريد وغير ذلك ـ غير آثار الانسان قبل التاريخ

وكل قسم من هذه التحف يشغل عدة قاعات وبينها من النوادر ما لا يوجد عند الامم الاصلية التي اخذت التحف منها . مثال ذلك ان بين التحف المصرية مخطوطات من البردى لا مثيل لها في المتحف المصري بالقاهرة وفيها حجر رشيد نعني الحجر الذي حلوا منه القلم المصري القديم (الهيروغليف) على اثر حملة بونابرت فان هذا الحجر اتصل الى المتحف البريطاني قبل انشاء المتحف المصري . شاهدناه في صدر الآثار المصرية في خزانة وهو اسود اللون مكسور من اعلاه . وفي المتحف المصري نسخة من هذا الحجر لكنها غير التي استعانوا بها على حل القلم المصري . وهناك آثار مصرية ثمينة وموميات عديدة ومصوغات

وقس على ذلك الآثار الاشورية والبابلية ولعلها في المتحف

البريطاني اغني منها في سواه وبينها ألوف من السجلات القرميدية المنقوشة بالحرف المسماري بينها القرميدة التي عليها قصة الطوفان كما يرويها البابليون . غير قراميد الصكوك والعقود والمراسلات وتماثيل قديمة جداً يظن انها نحتت نحو ٤٥٠٠ قبل الميلاد . وفيها آثار نينوي وقصور اشورية كاملة نقلت من بين النهرين الى هذا المتحف بجدرانها وسقوفها وتماثيلها . وفي جملتها تماثيل رجال اشتهروا بالتاريخ مثل اسرحدون نقلاً عن صورته على صخر عند نهر الكلب في بيروت وغير ذلك مما يطول بنا شرحه

وهناك قاعات للآثار الدينية على اختلاف الاعصر والامم . وفيها من المشابهة في الظواهر ما يدهش العقل . ومجموعة للساعات القديمة والحديثة والاسطرلاب وغيرها من صنع الاجيال الوسطى . وقد بحثنا بينها عن الساعة التي أهداها الرشيد لشارلمان فلم نقف على خبرها . وشاهدنا بين هذه التحف تمثال طاوس من فولاذ عليه نقوش فارسية وكتابة عربية وهو تمثال «طاوس» اله اليزيدين حملوه من بلد قرب ديار بكر . طوله متر وبعض المتر واقف على قاعدة كالطاعة المقلوبة وعليها نقوش

وفي قاعة المصنوعات الزجاجية مصنوعات عربية من مصابيح وكؤوس ونحوها عليها كتابة عربية بعضها من القرن الثالث عشر الميلادو بينها قطع زجاجية عليها كتابة من عهد الدولة العباسية

وفي قاعات العادات والازياء والمصنوعات الشرقية سيوف

بعضها تاريخي ينسب الى بلاده في الهند والصين في جملتها السيوف الدمشقية الشهيرة والفارسية والهندية والافغانية لكل منها شكل خاص . الفارسية منحنية والهندية والافغانية معتدلة وكذلك الدمشقية لكنها شديدة الصقل . قبضتها من ذهب بعضها بحد واحد والبعض الآخر بحدين . وقس على ذلك السروج وأشكالها

مكتبة المتحف البريطاني

يعرف القراء غنى هذه المكتبة بالكتب العربية مما يقرأونه في تاريخ آداب اللغة العربية عن الكتب الموجودة فيها . ويزيد عدد الكتب في هذه المكتبة على مليون كتاب في اللغات المختلفة والمواضيع على اختلاف الاعصر . بينها مجموعة نفيسة من المخطوطات العربية وفيها معرض لتاريخ الخطوط بينها خطوط مشاهير الملوك والقواد والعلماء منها توقيع ملوك انكلترا من ريكاردوس الثاني الى الملكة فيكتوريا وتوقيع ملوك آخرين . ومن خطوط مشاهير العلماء والشعراء والقواد شيء كثير . غير المخطوطات القديمة للكتب الهامة ولا سيما التوراة في العبرانية والسامرية واليونانية

وهناك مجموع لتاريخ الطباعة فيه أمثلة من المطبوعات من أول عهد الطباعة الى الآن منها نسخة من التوراة باللغة الالمانية طبعها غوتنبرج سنة ١٤٥٥ بيعت نسخة منها سنة ١٨٩٧ بمبلغ ٤٠٠٠

جنيه وهي أقدم المطبوعات على الاجمال . ثم قاعات لتاريخ الطباعة في كل مملكة على حدة

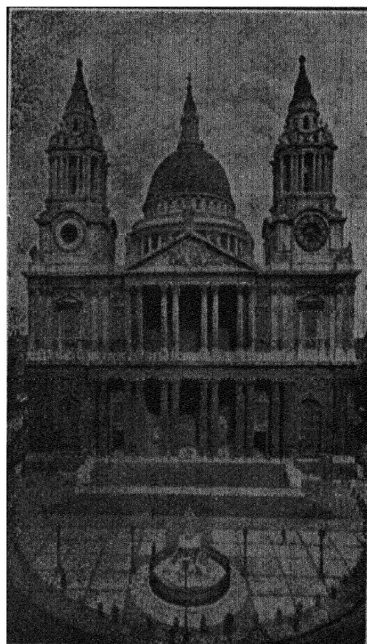
وفيها امثلة من الكتب المصورة بالالوان بعضها كتب حوالي العاشر للميلاد ومن المخطوطات الشرقية أقدمها انجيل في العربية والسريانية كتب على رق غزال في القرن العاشر للميلاد . وأقدم الكتب المخطوطة في العربية القرآن ومنه نسخة في المكتبة الخديوية يظن انها كتبت في القرن الثامن . ومن المخطوطات العربية المصورة بالمتحف البريطاني مقامات الحريري كتبت في القرن الثالث عشر وقد نشرنا صورة بها في الجزء الثالث من تاريخ آداب اللغة العربية

متاحف اخرى

وفي لندن متاحف اخرى عديدة يطول بنا وصفها أهمها « تيت كاليري » ويسمى متحف الصناعة الانكليزية وهو يشبه متحف لوكسنبرج في باريس فيه أمثلة من صنع أمهر المصورين والنحاتين الانكليز . اكثرها خيالي يراد به الفن من حيث تشخيص العادات والاخلاق او الوقائع التاريخية تصويراً بالالوان او نحتاً على الرخام . ومن أجمل المنحوتات المتقنة فيه تمثال ولنتن على جواده وصورة منحوتة تمثل حادثة الابن الضال ونحوها من الوقائع الشيرة . ومن الصور صورة المارشال روبرتس على جواده ونابليون على الباخرة التي حملته الى منفاه وأخرى تمثل الطوفان وغير ذلك

ومتحف ولس : أصله من المتاحف الخصوصية أهدته اللادي ولس المتوفاة سنة ١٨٩٧ للامة الانكليزية وهو يساوي ٤٠٠٠٠٠ جنيه . واشترت الحكومة المنزل لوضع المتحف فيه بثمانين الف جنيه سنة ١٩٠٠ ويمتاز عن سائر المتاحف بدقة ما يحويه من المصنوعات ويظهر للمتأمل في تحفه ان جامعها تأنق في انتقائها وسخا في ابتياعها وانه ذو ذوق سليم في الصناعة . ومن جملة ما شاهدناه فيها طاولة كتابة من زمن لويس الخامس عشر وصورة الملك جورج الرابع ومصنوعات مختلفة من القرن ١٧ و١٨ وهناك مجموعة صور محفورة في العاج او الذهب او العظم او منزلة بالميناء في غاية الدقة. ومجموع ساعات واسطرلابات وابر مغنطيسية من صنع القرون الاخيرة وآلات هندسية . ورأينا مصباحاً عربياً عليه كتابة عربية منقول من احد جوامع القاهرة . وهناك قاعة للاسلحة والادراع والمدافع بينها بنادق قبضاتها منزلة بالعاج عليها نقش جميل مدهش وأدراع مذهبة نحو ما شاهدناه في برج لندن لكنها أتقن وأثمن — وقاعات عديدة للصور الزيتية منها صورة تمثل رحيل يعقوب مع أبنائه الى مصر وغير ذلك من الصور والمحفورات والمصنوعات

ومتحف مدام تيسو : وهو كثير الشبه بمتحف جريفن في باريس فيه مشاهد تاريخية ممثلة بالشمع كما حدثت حتى يتوهم الناظر انه يرى الحقيقة كما هي . كل مشهد في غرفة خاصة منها موقف ولنتن عند سرير نابوليون وهو ميت وتمثيل موت نلسن ومقتل



كنيسة القديس بولس من الظاهر عند مدخلها الاكبر

غوردون في الخرطوم وتولية الملكة فيكتوريا . والملك جون يوقع ما يسمونه « ماجنا كارتا » ومشاهد أخرى شاهدنا مثلها في متحف غريفن . وتماثيل حديثة منها الملك ادوارد وقبطان التيتانيك وسان يتسان صاحب الانقلاب الصيني . وجمهور من عظماء الانكليز منهم غلادستون وسالسبوري وتشمبرلن ولويد جورج واسكويث وامبراطور الروس ومفاتيح قلعة متس . ومشاهير اميركا مثل روزفلت وتافت وغيرهما واذا وقع نظرك على أحدهم ظننته ينظر اليك يوشك ان يخاطبك

ومتحف فيكتوريا والبرت : وهو اثري تاريخي فيه مصنوعات ايطالية قديمة أكثرها ديني . بينها أمثلة من طرز البناء الايطالي ومصنوعات ايطالية من البرونز والطاسات والاباريق والتماثيل والاصنام الصغيرة . وصور صنع بلنسية باسبانيا في أوائل القرن الخامس عشر وهناك مصنوعات يونانية اكثرها كنائسي . وفي بعضها مصنوعات عربية منها قطعة من افريز كتبوا عليه انه منقول من جامع المؤيد بمصر . وساعة شمسية عليها كتابة عربية كاملة طولها متر وعرضها نحو نصف متر لم يذكروا مكانها . وقطعة من عتبة سبيل وغير ذلك . ومن التماثيل الضخمة في هذا المتحف مثال من عمود تراجان في رومية في قطعتين طول كل منهما نحو ٢٠ متراً وعرض قاعدتهما ٢١ قدماً بقدمنا . وهناك عدد كبير من الآثار الدينية وامثلة عديدة من آثار رومية منقولة بالجبس بينها رؤوس

عشرات من القواد الرومانيين والقديسين . وعـدة قاعات فيها أنواع من النسج والتطريز نحو ما شاهدناه في متحف كايني بباريس. ولا شك ان أصحاب الازياء (المودة) يستفيدون من الاطلاع عليها لوضع الزي الجديد . ومنحوتات تمثل حوادث دينيـة في القرنين ١٣ و١٤ وعلب واقفال من العاج المخرم في جملتها علبـة صنعت في صقلية في القرن ١٣ م على النمط العربي عليها صور مذهبة

وفيها مصنوعات اخرى دقيقة تشـبه ما في متحف ولس .

وقاعات للازياء والملابس حسب الاعصر والبلاد وهي مجموعة نفيسة لتاريخ الالبسة الشرقية والغربية . ويمتاز هـذا المتحف عن سواه بهذه المصنوعات واتقانها . ومنها سجادة طولها نحو ١٣ متراً كتب عليها « ٩٤٦ للهجرة » وانها حملت من جامع اردبيل وقس ذلك

ومن المتاحف التي تستحق الذكر في لندن المتحف الوطني (نيشنال كاليري) وهو مجموع مصورات ومصنوعات مثل متحف لوكسنبرج بباريس

بلاد الانجليز خارج لندن

جمعت لندن أهم المتاحف والآثار ولـكن في غيرها كثيراً مما يستحق الذكر . ونذكر منه ما وفقنا الى رؤيته في أثناء هـذه الرحلة في كمبريدج واكسفورد ومنشستر

كمبريدج : وجدنا كمبريدج بلداً عامراً بالمدارس والـكليات يكاد يكون قوام عمرانه على تلامذة المدارس وأساتذتها ومن يلحق

بهم . وربما بلغ عددهم جميعاً نحو ٤٠٠٠ نفس . أما أهل البلد فلا يزيدون على ٤٥٠٠٠ نفس . ومما استلفت انتباهنا أبنية تلك المدارس التي يتألف من مجموعها « جامعة كمبريدج » الشهيرة فانها متشابهة الشكل قديمة الطرز وهو طرز الاجيال الوسطى . والبناء عبارة عن مربع كل ضلع منه مؤلف من غرف متناسقة صفاً واحداً في ثلاث طبقات بعضها للتعليم والبعض الآخر للاكل او النوم . ووسط المربع حديقة او فسحة خالية . وفي كل مدرسة كنيسة وتتألف المدرسة الواحدة من ثلاثة مربعات او أربعة متقاربة يستطرق بعضها الى بعض وأبواب الغرف صغيرة على نسق واحد بسيط كثيرة الشبه بالأبنية الشرقية وقد سهل علينا الاستاذ براون مشاهدة أجزاء هذه الابنية واستلفت انتباهنا الى باب غرفته وهو ثخانة الحائط فاذا كان الاستاذ في غرفته أغلق الباب الداخلي فقط فاذا خرج أغلق البابين جميعاً

والسبب في بقاء هذه المدارس على الطرز القديم انها تأسست في الاجيال الوسطى فبنيت على طرزها وحافظ أصحابها على ذلك الطرز . وقد وصفنا جامعة كمبريدج وعدد مدارسها وتلامذتها غير مرة في الهلال

وفي كمبريدج متحف لا يذكر بالنظر الى متاحف لندن . لكننا شاهدنا فيه ترساً مستديراً عليه نقوش فارسية بينها اسم السلطان نادرشاه فاذا كان المراد به القائد الفارسي المشهور بهذا

الاسم كان هذا الترس من التحف الثمينة

اكسفورد : وهي تشبه كمبريدج من اكثر الوجوه وقد عرفت بجامعتها واشتهرت بمكتبتها المعروفة بمكتبة بودليان فانها من المكاتب النفيسة في الآثار الشرقية . وقد جاء ذكرها مراراً عديدة في أثناء ذكر أماكن الكتب بتاريخ آداب اللغة العربية . وفي كمبريدج مكتبة نفيسة لكن هذه اوسع وأغنى . وقد سهل علينا الاستاذ مرجليوث رؤية كتب عربية نادرة فيها

ذكرناها في أماكنها من تاريخ آداب اللغة . وفي مكتبة اكسفورد كتب خطية انكليزية وايرلندية دينية مصورة من القرن الثامن للميلاد

منشستر : هي مدينة صناعية تكاد تكون معملا كبيراً لكثرة ما فيها من المعامل والمتاجر . يتوسم القادم فيها ذلك قبل وصوله اليها بما يشاهده من الدخان المتكاثف فوق أبنيتها . ولذلك كان اكثر سكن أهلها في الضواحي . وهي مثال للجد والعمل وتنافس المواهب الصناعية والتجارية . وقد أتيح لنا مشاهدة معمل للغزل بجوارها فيه نحو ١٠٠٠٠٠ مغزل و ٢٠٠٠٠ مغزل مزدوج و ٩٠٠ عامل ويدير مغازله آلات بخارية قوتها ٢٥٠٠ حصان . رأينا القطن يدخل بالات ويخرج مغزولا خيوطاً دقيقة في غاية الضبط . ويضيق بنا المقام عن وصف تجارة هذه المدينة وفي شهرتها ما يغني عن الاطناب

وقد سرنا ما شاهدناه فيها من تقـدم اخواننا السوريين فقد عرفنا منهم طائفـة حسنة من كبار التجار كما شاهدنا في باريس. وبينهم غير واحد من أصحاب الثروة والتجارة الواسعة . وهم على الاجمال أهل سمعة حسنة وقد تخلق اكثرهم باخلاق الانكليز من المحافظة على الوقت والصدق في المعاملة والتأني في الحـكم – وهي مزية للسوري على سواه نعني مقدرته العجيبة في تطبيق أحواله على الوسط الذي يعيش فيه . فتجده في فرنسا كأنه فرنساوي بحركاته وكلامه ومعاملته وسائر أحواله وهكذا بانكلترا او اميركا . والتجار السوريون في منشستر لهم معاملات واسعة مع أبناء بلادهم في أقطار العالم شرقاً وغرباً ولعملائهم ثقـة عظيمة فيهم مثل ثقتهم بالتجار الانكليز . ومن البيوت التجارية السورية في منشستر محلات كحلا وغبريل وجبارة ومطر ومجدلاني وخوري حداد وفرح وبحمدوني وغيرهم

ثالثاً ـ سويسرا

ضاق المقام عن الافاضة في وصف سويسرا وقد زرنا منها جنيف ولوزان وايفيان . وهي من أحسن مصايف العالم لوقوعها حول بحيرة من أكبر البحيرات . تحف بها الشواطىء المكسوة بالغابات الغضة والقرى العامرة . وكنا لما زرنا الاستانة منذ بضعة أعوام أدهشنا بوسفورها بما على شاطئيه من التلال المكسوة بالاشجار والقصور . وقلنا انها فريدة في العالم فلما شاهدنا جنيف وضواحيها اذا هي كثيرة الشبه بالبوسفور من حيث مناظره الطبيعية

وفي جنيف بعض المتاحف والمعارض . وفيها جامعة شهيرة وكذلك لوزان فان جامعتها كبيرة . وأما ايفيان فقد عرفت بمائها العذب يحمل بالقناني المختومة الى أنحاء العالم المتمدن

ونختم كلامنا عن هذه الرحلة بفائدة اجتماعية فلسفية شاهدناها في فرناي بجوار جنيف وهي القرية التي قضى فولتير أعوامه الاخيرة فيها . ومنزله هناك معروض للفرجة بما فيه من الاثاث والادوات في غرفة للنوم والمكتب والمائدة . مما يبعث على التفكير في مصير الانسان . وانما أثر في خاطرنا على الخصوص تمثال لفولتير نصبه أهل القرية في مدخل قريتهم فوق قاعدة من الرخام نقشوا عليها بالفرنساوية ما ترجمته :

« الى فولتير المحسن لفرناي وقد عمر لأهلها اكثر من مئة بيت وبنى لهم كنيسة ومستشفى وحوضاً للماء وسبيلا وكان يقرضهم

النقود بلا ربا . وقد جفت المستنقعات وأنشأ أسواقاً للبيع والشراء وأطعم أهلها في مجاعة سنة ١٧٧١ »

وقفنا عند هذا التمثال برهة ونحن نعيد قراءة ما نقش عليه . وانما أدهشنا منه قوله «وبنى لهم كنيسة» . والقراء يعرفون فولتير ونظره في الكنائس وما يتبعها فكيف يبني للناس كنيسة ؟ انه لم يبنها لما يرجونه هم منها لاخراهم بل بناها لاعتقاده انها من أهم أسباب سعادتهم . وانهم لا يستغنون عن الدين في معاملاتهم . وفي ذلك عبرة للذين يتوهمون استغناء الناس عن الدين